مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies

متابعات إفريقية

العدد (٣٧) جمادى الآخرة ١٤٤٥هـ - يناير ٢٠٢٤م

تحرير: الدكتور محمد السبيطلي

د. محمد سمب باه
د. كوثر أبو العيد
د. هارون باه
د. هبه عاطف الجابري
د. ميلود عامر حاج
د. سعيد ندا
آية بدر
د. ياسين بن روان
د. مصطفى سالم

www.kfcris.com

متابعات إفريقية

العدد (٣٧)

المحتويات

متابعات إفريقية

سلسلة أوراق متخصصة يضمها تقرير شهري يصدر عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض. تناقش السلسلة الملفات والقضايا السياسية والاقتصادية والأمنية المختلفة التي تهم سُكّان القارة الإفريقية وانعكاساتها الإقليمية والدولية من خلال مقاربات متعددة التخصصات وزوايا النظر.

للتواصل: afrstudies@kfcris.com

الدراسات: ٩

١- **المخطوطات الفوتجلوية «دولة الأئمة» بغينيا (قراءة تعريفية)**

د. محمد سمب باه، التاريخ والتراث، أستاذ باحث، مدير جامعة الإعمار، مؤسس مركز المخطوطات والدراسات الإفريقية، مامو. ١٠

٢- **نظام الحجر الصحي في الرحلة الحجية المغربية**

د. كوثر أبو العيد، أستاذة باحثة بجامعة سيدي محمد بن عبد الله، متخصصة في التاريخ الحديث والمعاصر، فاس. ٣٥

التقارير: ٥٨

١- **الانقلابات في إفريقيا: بين الكمون والانفجار**

د. هارون باه، باحث في الشؤون الإفريقية، زيغنشور. ٥٩

٢- **الأمن السيبراني ومواجهة الإرهاب الإلكتروني**

د. هبه عاطف الجابري، مدرس الإعلام بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة. ٥٨

٣- **الدولة في إفريقيا بين هشاشة التنمية والتهديدات الأمنية**

د. ميلود عامر حاج، المدرسة الوطنية العليا للعلوم السياسية الجزائر ٣، الجزائر. ٧٠

٤- **الاقتصاد السياسي للصراعات المسلحة والحروب الأهلية في إفريقيا**

د. سعيد ندا، دكتوراه العلوم السياسية، جامعة القاهرة، القاهرة. ٧٩

٥- **العنف الانتخابي في كينيا والحوار الوطني وآفاق الديمقراطية**

آية بدر، باحثة دكتوراه في العلوم السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، القاهرة. ٩١

عروض الكتب: ١٠١

١- **ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق**

د. ياسين بن روان، باحث في الدراسات الصحراوية والإفريقية، مدينة العيون. ١٠٢

٢- **الأصول العربية للطوبونيميا في الجزائر**

د. مصطفى سالم، أستاذ في علم الآثار، جامعة باتنة ١، الجزائر. ١٠٩

هيفاء المطوع

تحرير

د. طارق باكير

مراجع لغوي

إخلاء مسؤولية

تعكس هذه المقالات ومحتوياتها تحليلات الكاتب وآراءه، ولا ينبغي أن تُنسب وجهات النظر والآراء الواردة فيها إلى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، والكاتب وحده هو المسؤول عما يرد فيها من استنتاجات أو إحصاءات أو أخطاء.

رقم الإيداع بمكتبة الملك فهد الوطنية:

١٤٤٤/١٠٩

ردمد: ١٦٥٨-٩٤٢٤

كلمة المحرر

يخصص في هذا العدد الجديد حيّزٌ مهمٌّ للمخطوطات العربية في دول الساحل والصحراء، وهي المنطقة التي شهدت -تاريخيًّا- قيام دول إسلامية مترامية الأطراف، تحكم مجتمعات تركت نخبها العلمية تراثًا علميًّا ثريًّا، دُوِّن باللغة العربية، وبعض اللغات المحلية المستخدمة للحرف العربي. ومن أهم هذه الدول، التي قامت في منطقة الصحراء تذكر الدولة الفوتجلوية، والتي حكمت ما يسمى اليوم بدولة غينيا. وكان شعب هذه الدولة هم الفولاني أو «الفلاتة». وجاءت ورقة الدكتور: محمد سمب باه الشرقوي لتغوص بنا في تاريخ هذه المنطقة، وتعرف بقبائلها وشعوبها، وتراثها العربي، الذي تحتضنه اليوم دور ومكتبات خاصة وعامة، شاهدة على الجهود الضخمة المبذولة للعناية بهذا التراث، من جانب مراكز حفظ التراث المخطوط، لتجميع هذا الذاكرة العلمية الحيّة، وحمايتها ونشرها. ودورية «متابعات إفريقية»، ومن منطلق اهتمامها بالتعريف بهذا التراث العربي الإفريقي، الذي يمثّل أحد أوجه الالتقاء والتلاقح التاريخي بين الثقافتين؛ العربية والإفريقية- تنشر هذه الدراسة القيمة.

وفي سياق قريب من هذا، جاءت ورقة الدكتورة: كوثر أبو العيد، التي تناولت الرحلات الحجّيّة من المغرب إلى الحجاز في التاريخ الحديث، والموقف من مسألة الحجر الصحّي، الذي اكتنف تلك الرحلات، وذلك في إطار التحوّل الذي حدث في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي في طريق الحج، والانتقال من الخطوط البرية إلى المسالك البحرية، وسيطرة الدول الاستعمارية الغربية على موانئ خطوط رحلات الحج هذه.

ويأتي استمرار المحاولات الانقلابية في إفريقيا، والتي كانت آخر محاولة لها في نهاية شهر نوفمبر من العام الحالي ٢٠٢٣م في سيراليون، وكذلك التي حدثت في مطلع شهر ديسمبر في غينيا بيساو من هذا العام، لتطرح من جديد ضرورة تحليل أبعاد هذه الظاهرة السياسية وتداعياتها، التي تهدّد الاستقرار في أقاليم كثيرة من القارة. وفي هذا الباب جاءت ورقة الدكتور: سعيد ندا، عن الاقتصاد السياسي للصراعات السياسية عمومًا في إفريقيا، وكذلك ورقة الدكتور: هارون باه، التي بيّنت تداعيات الانقلابات على النظم السياسية، ومؤسسات الدولة وأجهزتها، وحياة المواطنين. وكذلك دور المنظمات القارية والإقليمية في مواجهة آلية الوصول إلى الحكم، عبر الانقلاب العسكري.

كما تصدّت ورقة الدكتور ميلود عامر حاج إلى الموضوع نفسه؛ ببيان العلاقة بين انعدام الاستقرار السياسي والأمني، وهشاشة الدولة من جهة، ومحدودية التنمية من جهة أخرى. وأشار إلى عجز الدولة الوظيفي في إفريقيا، والذي أعاقها عن بلوغ مقاصدها؛ ولذا فلا يمكن أن يحدث الاستقرار السياسي والأمني من دون تحقيق نسب عالية من التنمية الشاملة، والتوزيع العادل لثمارها.

دراسات

المخطوطات الفوتجلوية «دولة الأئمة» بغينيا (قراءة تعريفية)

د. محمد سمب باه، التاريخ والتراث، أستاذ باحث، مدير جامعة الإعمار، مؤسس مركز المخطوطات والدراسات الإفريقية، مامو.

إنّ الأمّة كانت - ولا تزال - تسمو بتراثها المجيد، وترقى إلى ذرا العزّ المنيف، رابطة ماضيها بحاضرها، لافتًا أنظارها في هذا الكمّ الهائل من المخطوطات، المختلف ألوانه، المتعدّد فنونه وعلومه، حتى في علوم لم يكن يخدش في الخلد، أنّهم طرقوا بابها، أو مرّوا بفنائها، فضلًا عن أن يكونوا غاصوا في بحارها، وعمِقوها، وتعمّقوا فيها؛ بل استدركوا على من غرسوا بذرتها، بالتنسيق والاختراع والزيادة، وهذا أمر مشترك بين العلماء، في مختلف الأزمنة والأمكنة. وإفريقيا جزء من هذه الأمة، عاشت ردحًا من الزمن، وآثارها المخطوطي يتهادى بين رفوف الخصوصية، وسقف الأكواخ، تأكله الأرَضة، ويتعرض للبتر والخرم والتلف، ويمحو آثاره الخطي، ويصيبه كلّ أنواع الفساد المادّي والمعنويّ، على أن الفرق بيننا وبينهم كبير، في حالنا وحالهم، ووسائلنا ووسائلهم، ومستواهم ومستوانا، وإنتاجهم وإنتاجنا، كيف وقد عجزنا عن حماية وصيانة ما خلّفوه لنا؛ إذ التراث «أكثر المطبوع في حكم المخطوط، وأكثر المخطوط في حكم المطبوع»![1] والحال أننا نسعى إلى التجديد سعيًا حثيثًا، وليس بالإمكان؛ «إذ من التجديد قتل القديم فهما».[2]

والسبيل إلى هذا، تبصير النشء بأهمية هذا التراث، وإيعاؤه، وأنَّه الممثّل للصورة الحضارية، وعصارة فكرهم لعقود عديدة مديدة، وثمرة جمعهم، وسهرهم ليالي طويلة. وحري أن يقابل الإحسان بالإحسان، وما على المحسنين من سبيل، وحقّهم علينا أن نصرف أعنّة الشكر إليهم، ونلقي مقاليد الاستحسان بين يديهم، فهذه نفحات خاطرهم، ونفثات ألسنتهم.

والسبيل إلى توجيه مثل هذا الموضوع، أن يتأسّس على مبحثين؛ «المبحث الأول: التعريف بكيان هذه المخطوطات تاريخًا وجغرافية، والتعرج على التعريف بالمصطلحات المحلية الواردة في المخطوطات الغنكرية،[3] ثمَّ «المبحث الثاني: التعريف بالمخطوطات الموجودة في «مركز المخطوطات والدراسات الإفريقية». على أن أتعرّض لنسج شبكة عنكبوتية، لبعض الخزانات الخاصة، المتوزّعة على ربوع

البلاد الفوتجلوية، ثمَّ خاتمة تسفر عمَّا نتج عن ذا وذاك، بالتوجيه والتعليم، وللقارئ الكريم الإفادة والاستفادة منه، حسب طبعه وطبيعته.

المبحث الأوّل

التعريف بمنطقة «فوت جلو» تاريخا وجغرافية.

- **المطلب الأوّل** – المصطلحات والقبائل والأسائر الفوتية.
- **المطلب الثاني** – التعريف بدولة الأئمة في فوت.

المبحث الثاني

التعريف بالمخطوطات الموجودة في «مركز المخطوطات والدراسات الإفريقية».

- **المطلب الأول** – التعريف العام بالمركز وما احتواه من مخطوطات في الخزانة.
- **المطلب الثاني** – دراسة وصفية لأنموذج من المخطوطات.
- **الخاتمة** – أهم النتائج في البحث المقدم.

«دخول الإسلام»

إنَّ حديثًا عن دخول الإسلام في إفريقيا له عموم وخصوص، وباعتبار القارّة؛ فإنَّ الإسلام دخلها في القرن الأول الهجري، في سنته الخامسة من البعثة، وفي سنته الإحدى والعشرين؛ الأول في الحبشة، والثاني في مصر.[٤] وفي سنته الثالثة والأربعين في القيروان، ولواته، وكور السودان،[٥] فهذه عيّنة من الدول والأماكن، ورد فيها التفصيل، وتعيين سنة الفتح، ودخول الإسلام فيها.

وأمَّا ما عداها فيصعب التحديد بالدقّة اللازمة تاريخيًّا، وعلى أية حال، فثمة قرائن تشهد على تقدّم بعض الأماكن على بعض، وعلى اتفاق المؤرخين أن الدول القريبة من تلكم الأماكن المذكورة، هي ممرّ الإسلام إلى الدول النائية البعيدة؛ فغربي إفريقيا، من تلك الدول القريبة والمجاورة للصحراء الكبرى، التي كانت معبرًا للتجار والحجّاج والرحلة.

وفي تأريخ دخول الإسلام فيما يعرف اليوم بجمهورية غينيا، وبالأخص غينيا الوسطى، بما يعرف قديمًا وحديثًا بـ«فوتجلو» ليس من الأمر الهين، وما يمكن القطع به، أنه قديم جدًّا، وقد جاء في تاريخ السودان للسعدي، وهو من أوائل ما صنَّف في المنطقة، أن سنّ عليّ كُلنْ،[٦] أحد ملوك إمبراطورية سنغي- أغار على الفلانيين في ماسنة، وانقسموا بذلك إلى ثلاثة أقسام: قسم توجه نحو الشرق، وقسم إلى فوت طور، وقسم إلى فوت.

وهذا في السنة ٨٧٣هـ كما ذكره السعدي، ومعلوم أن هؤلاء نزحوا إلى فوتجلو بإسلامهم، والمصادر التاريخية في فوتا تشهد بوجود فلانيين مسلمين آنئذ وقبله. ولا يكاد الناظر في تاريخ فوت جلو يجد انفصالًا تامًّا في دخول الإسلام في بقية المناطق في غينيا، ودور علماء فوتا في نشر الإسلام فيها؛ تعليمًا وتربية.

وفي فتوى مخلوف البلبالي[٧] حول السودان ما نصّه: «أما من كان مسلما، كأهل كَنَوْ، وبعض زكزك، وأهل كاشنة، وأهل كوبر، وجميع سنغي، كلهم مسلمون، فلا يجوز تمليكهم. وكذلك فلان كلهم..».[٨] وبه أقرّ العلامة أحمد بابا التنبكتي في فتواه «معراج الصعود..»، أو «الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان».

ويشهد له ما ذكره العلامة ابن حزم الظاهري في رسالة «رسالة في جمل فتوح الإسلام»، وفي آخر جملة منها، قال: «بلاد السودان: بُلِّغْتُ في عام إحدى وثلاثين وأربعمائة، أنه أسلم أهل سلا،[٩] وتَكْرُور،[١٠] وهما أمتان عظيمتان من بلاد السودان، أسلم ملوكهم وعامتهم، ولله تعالى الحمد كثيراً».[١١]

وقد ذكر نحوًا من هذا أبو عبيد البكري في المسالك والممالك: «ما بين الغرب والقبلة على النيل، مدينة تكرور أهلها سودان، وكانوا على ما كان سائر السودان عليه من المجوسية، وعبادة الدكاكير، والدكور عندهم الصنم، حتّى وليهم وراجابي بن رابيس فأسلم، وأقام عندهم شرائع الإسلام، وحملهم عليها، وحقّق بصائرهم فيها. وتوفّي وراجابي سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، فأهل تكرور اليوم مسلمون».[١٢]

قلتُ: والسبيل إلى هذا، أن الفلّان من أوائل من أسلموا في هذه القارّة السمراء، ويتأكد ذلك بالروايات الموجودة في التراث العربي الإسلامي، وأضف على ذلك ما ذكره ابن حزم رحمه الله تعالى، في أن ورا جابي أسلم معه سائر مملكته، التي هي أولى مملكة فلانية (إمبراطورية تكرور)، والتي امتدّت أكثر من خمسة قرون قبل هذا الملك، واشتهر أهل المنطقة بهذا الاسم، من قديم الزمان.

- **المطلب الأوّل –** المصطلحات والقبائل والأسائر الفوتية

فهذه المصطلحات يمكن تقسيمها على ثلاثة أقسام: مصطلحات عرفية اجتماعية، ومصطلحات سياسية قومية، وأخرى علمية اجتماعية، ولنبدأ بها مرتبة على ترتيب ألف بائي، فدونك المصطلحات السياسية:

أ) **فوتا:** مصطلح محلي، يقال له (فوت جلو)،[١٣] على غرار إضافته في السنغال إلى (تورو)،[١٤] وفي (مالي) إلى (ماسنة).[١٥]وأقدم ما وصل إلينا من ذلك، أنها وردت في التوراة في سفر التكوين، عند ذكر أبناء نوح: كوش ابن حام بن نوح، «فوتا» ابن حام بن نوح، ومصرايم ابن حام بن نوح، وكنعان بن حام بن نوح.[١٦] وهو من أصول المواطن الأصلية للفلانيين،[١٧] وهو أحد الجبال العالية في ذلك الإقليم، ومن الجبال الشهيرة في غربي إفريقيا، حسب المتخصصين، وتعد مرتفعات فوتا جلو، من أعلى المرتفعات في غربي إفريقيا.

وتوجد في «فوتا» أيضًا قمم عالية، تعدّ من أعلى القمم،[١٨] ومن مجموعة هذه الجبال، ينبع نهر غامبيا والنيجر، أهم الأنهار في إفريقيا، وقد هيّأ هذا الوضع الجغرافي المتميّز لـ (فُوتَجَلُو) أحسن الظروف، لتكون منطقة زراعية، تزخر بأنواع المواد الغذائية المختلفة، كما جعل منها بيئة ملائمة للتربية الحيوانية، بتربية المواشي، خاصة الأبقار.[١٩]

ويرادف هذا المصطلح مصطلح فولبي، أو الفلاني، أو الفلاتي، أو الفلاته، وحيث وجد «فوتا» وجد فيه الفلانيون، وهم الأصل، وغيرهم فيها يكونون من باب المجاورة، أو المساكنة، كما يرادفه أيضًا كل من مصطلح «تكرور»، و«تور».

ب) **العباسي:** مصطلح محليّ، يقصد به «دولة الأئمة في فوتا جلو»، وله غرضان متغايران عند المؤرخين الفلّان، الغرض الأوّل: الانتساب إلى الجد الرابع، لأوّل إمام للدولة، وهو الإمام ألفا إبراهيم بن نوح بن محمد كيكل بن سيدي بن عباس..، والثاني: أنه انتساب إلى الدولة العباسية المعروفة غبّ الدولة الأموية،[٢٠] وهذا عندي بعيد جدًّا.

ت) **دِيوَلْ:** مصطلح محلي، يطلقونه على مملكة واحدة، أو ولاية، وتجمع على «دِيو»، ويمكن أن تكون المملكة بمنزِلة دولة، نظرًا لسعة بعض الممالك في دولة الأئمة، وكانت الدولة تشتمل على تسع ممالك، بخصوصيات مختلفة، ووظائف متعددة الجوانب، ومن هذه الممالك: العاصمة؛ مملكة تِنْبُ، وكانت عاصمة وحاضرة (فُوتَا جَلُو)، ومقر سلاطينها، وولاية (لاَبِي)، وكانت -كما يروي الْمؤرخون - تشتمل على أربع وثلاثين بلدة، ومن المساجد ثلاثمائة وأربعة عشر، ممّا يدل على ازدهارها، وانتشار العلم فيها. وغيرها من الولايات.[٢١]

ث) **تِيْكُم:** هو مصطلح محلي، يقصد به إقليمًا واحدًا، وتجمع الكلمة على «تيكنج»، ويمكن للمملكة أن تضمّ أكثر من خمسة، ويكون على كل واحدة منها وال، ومجلس شورى، وقضاة، يعنون بأمرها، ويكون المرجع الأعلى «تيكُمْ مَوْط» أي: الكبير، ولا يتولى أمر الأخير إلا الأسرة المشاركة في تأسيس الدولة، المنصوص عليها في دستور ١٧ رمضان عام ١١٤٠هـ.[٢٢]

ج) **لِيمُدَلْ:** هو بمنزِلة محافظة أو بلدية على الأقل، يتكّون عليها «تيكم»، ويمكن أن يتعدد، ويشترط أن يكون فيه مسجد جامع، ويكون فيه مسؤول، ومرجع ديني يستفتيه الناس في أمورهم الخاصة، وقاض.

ح) **ألمام:** مصطلح محلي وشرعي؛ وهو تحريف لكلمة الإمام، والإمام، أو الإمامة، وهي كما قال الإمام الماوَرديُّ: (الإمامةُ مَوضوعةٌ لِخِلافةِ النُّبُوَّةِ في حِراسةِ الدِّينِ، وسياسةِ الدُّنيا).[٢٣] وقال الإمام أبو المعالي الجُوينيُّ: (الإمامةُ رياسةٌ تامَّةٌ، وزَعامةٌ عامَّةٌ، تَتَعَلَّقُ بالخاصَّةِ والعامَّةِ، في مُهمَّاتِ الدِّين والدُّنيا).[٢٤] وقال الإمام ابنُ تَيميَّةَ: (الإمامُ هو الَّذي يُؤتَمُّ به، وذلك على وَجهَينِ، أحَدُهما: أن يَرجِعَ إليه في العِلمِ والدِّينِ، بحَيثُ يُطاعُ باختيارِ المُطيعِ؛ لكَونِه عالِمًا بأمرِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ آمِرًا به، فيُطيعُه المُطيعُ لذلك، وإن

كان عاجِزًا عن إلزامِه الطَّاعةَ. والثَّاني: أن يَكونَ صاحِبَ يَدٍ وسَيفٍ، بحَيثُ يُطاعُ طَوعًا وكَرْهًا؛ لكَونِه قادِرًا على إلزامِ المُطيعِ بالطَّاعةِ.[٢٥]

وهذا هو مفهوم «ألمام»، ولا يطلق إلا على الخليفة العام، ومن حسن حظّ الدولة، أن الأئمة الذين تعاقبوا عليها كانوا علماء بمفهومه الواسع، وأضف على ذلك، أنهم كانوا أصحاب مراكز علمية عالية المستوى.[٢٦] وتقوم على أسس ومبادئ إسلامية، خلال فترة امتدّت قرنين ونصفًا، قبل الاستعمار الغربي، وتوالت عليها الحكم عبر هذه السنوات الطوال أسرة «ألفايا، ثم هي وسريا» تناوبا، وهي بطن واحد، ولقبهم «باري». ومن اللطائف اللافتة للأنظار، أن هذه الخلافةَ الإسلاميةَ في المنطقة، بدأت بألفا إبراهيم، وانتهت بإبراهيم آخر أيضًا.[٢٧] وهو مصطلح مغاير للقيادة الدينية، إمامة الصلاة، حيث يكتفي القوم بكسر همزتها، وحذف التاء، هكذا: (إمام).

خ) الوالي: يطلق على حاكم المملكة أو الولاية، وفي سائر الممالك الأخرى التسع، ولاة، يختارون بطريقة معينة، مختلفة عن اختيار الأئمة للدولة، وهي كلمة عربية، ينطقها القوم هكذا، بدون تحريف في اللفظ، أو تغيير في النطق.[٢٨]

د) أَلْفَاجُ: مصطلح محلي، له إطلاقان: إطلاق على رئيس القبيلة، وإطلاق على الوالي، ويكثر استعماله، وقد يصطلحونه على العالم الورع الكبير السنّ، والأخير هو المتداول بين الناس.

وأمّا المصطلحات العلمية فهي أيضًا كثيرة، وقد اختار الباحث أكثرها تداولًا، والتي لها صلة بالمخطوطات العربية، ومستعملة في كتب التاريخ والتراجم، وغيرها، مترجمة تارة، وبدون ترجمة أخرى، وتلكم هذه المصطلحات:

أ) جرن: وهذا المصطلح يتكون من ثلاثة أحرف (الجيم، والراء، والنون)، وهو من قبيل النحت عند التصريفيين، ويرمز إلى العالِميّة، وكلّ حرف من هذه الأحرف الثلاثة، يشار به إلى كلمة بعينها، وفكها يكون على هذا النحو: (الجيم) للعالم المستفرغ في قعب قلبه سائر المقررات آنئذ، و(الراء) الورع، بالمعيار الشرعي والعرفي، ثم (النون) النافع؛ تعليمًا للخلق، وتنفيسًا لكربه، على غرار مصطلح «سرن» في فوتا السينغالية.[٢٩]

ب) مُودِ: مصطلح محلي، يكثر وروده في التراث الإفريقي الفلاني، والمراد به: المدرس المتفوق في التعليم والتربية، وهو تحريف لكلمة «مُؤَدِّب»، وسهلت الهمزة مع حذف الباء، ويذكر هذا اللقب مقترنًا بالأعلام، وينبغي الانتباه بشدة إذا ذكر بعد الأعلام، فعندئذ يكون المراد به الكبير، كما وقع ذلك أيضًا في كثير من المخطوطات العربية الإفريقية، والحاصل أنه إذا ذكر قبل العلم، فمصطلح علمي، وبعده فمصطلح اجتماعي.[٣٠]

ت) ألفا: مصطلح إفريقي، يستعمل على نطاق واسع في الغرب الإفريقي، ويستعمله فلاني فوتا جلو، والفوتتين التوري والماسني بمفهوم «الفاهم»،[٣١] أو «الفقيه»، وقد يكون المفهوم نفسه عند غيرهم.[٣٢]

ويلي هذا الأنموذج من المصطلحات السياسية والاجتماعية والعلمية مصطلحات القبائل والأسائر، وهي من الأهمية بمكان؛ إذ هي في صميم خدمة المخطوط الفوتي والغيني، وقد وقع أخطاء كثيرة لبعض الباحثين،

لغياب هذا الأنموذج لديهم، ونسبوا مخطوطات إلى جهات مجهولة، ولعلماء غير معروفين،[٣٣] وسأكتفي في فرع القبائل والأسائر بوضع جدول، لو اكتفى البحث به، لكان كافيًا في الاهتداء إلى المخطوطات، والكشف عن أصحابها وهويتهم، ويحتوي الجدول على عدّة خانات: خانة عامة للقب، وخانات صغيرة لمن ينتسبون إلى ذاك اللقب، وأخرى لطريقة انتسابهم إلى تلك الأسر؛ للتعرف على هويّة المؤلف والناسخ في فاتحته، أو قيد فراغه (حرد المتن).

فدونك الجدول

لقب القبيلة	الأسائر والبطون	ضبطه بالعربية	النسبة بالعربية
باه (رعرب) (عوروبّ) أو (عوربّ)	دُيِب (دينك) (Duyebe)	بضمّ وياءين ممالة وساكنة وباء مكسورة ممالة	الدُّيَازِي أو الديوي
	بَلْب (بلنك) (Balbe)	بفتح الباء وسكون اللام وباء ممالة	البلبي أو البلبوي
	كُلُنَاب (كُلُنَنْك) (Kulunanke)	بضم الكاف واللام وفتح النون الأولى وفتح الثانية..	الكلننكوي أو الكلني
	لَلِيَاب (لَلِيَنْك) (Laliyaabe)	بفتح اللام وكسر الثانية وإمالة الأخيرة	اللياوي أو اللِّويّ
	هِلَايَاب (Helayaabe)	بكسر ممالة وفتح اللام والياء وإمالة الباء	الهلاياوي أو الهلوي
	دِمْبِلِيَابِ (Dembeleyabe)	بكسر ممالة مع إسكان الميم وكسر الباء ممالة مع اللام وفتح وإمالة الأخير	الدمبلي أو الدمبلياوي
	بُلُيَابِ (Boloyaabe)	بضمّ ممال مع اللام وفتح مع إمالة الأخير	البُلياوي أو البلوي
	يَالَلْب (yaalalbe)	بفتح الياء واللام الأولى وإسكان الثانية مع إمالة الأخير	الياللوي أو الياللبي
	دِمْبُب (Dembube)	بكسر ممالة وإسكان الميم وضم الباء الأولى مع إمالة الباء	الدمبوي أو الدمبي
	لُدَاب (Ludaabe)	بضمّ اللام وفتح الدال وإمالة الباء	اللُّدَاوِي أو اللدوي
	شرقياب (Surgayaabe)	بضم فسكون وفتح القاف مع فتح الياء	الشرقوي أو الشرقي أو الشرقاوي
	سوقياب (Sugiyaabe)	بضم فسكون الواو وكسر القاء وفتح الياء	السوقي أو السوقياوي

لقب القبيلة	الأسائر والبطون		ضبطه بالعربية	النسبة بالعربية
(بطول) جالو (جلّب)	قِلَّى (بِلَّاب):			
	١	خَالِدُيَاب (خالدينك) (Kaliduyabe)	بفتح الخاء وضم اللام والدال	الْخَالِدِيّ
	٢	وُسْنَيَاب (وسنينك) (Wusnayabe)	بضمّ الواو وسكون السين وفتح النون وفتح الياء	الوسني أو الوسنوي
	٣	قِرِيَاب (قرينك) (Gariyabe)	بقاف مكسورة ممالة وراء مكسورة وياء مفتوحة	القِروي أو القرياوي
	٤	بَاتِيَاب (باتينك) (Pateyabe)	بفتح وألف وكسر ممالة وفتح الياء مع إمالة الباء	الباتوي
	٥	جَمْ بِيَاب (جمبينك) (Diampiyabe)	بفتح فسكون وكسر ممالة في الباء وفتح الياء بعده	الجم بياوي
	٦	قَرِيَاب (قرينك) (Geriyabe)	بفتح ممالة وكسر الراء وفتح الياء مع إمالة الباء	القَروي
	٧	دِكُّيَاب (دكينك) (Dikoyabe)	بكسر الدال فضم ممالة وفتح الياء وباء ممالة	الدّكُوِي
	٨	كُلِيَاب (كُلِينْك) (Koleyabe)	بضم ممالة وكسر اللام وفتح الياء	الكلوي أو الكلياوي
	سِيلِيَاب (سِيلِيَنْك) (Seleyabe)		بكسر ممالة في السين واللام بعده	السيلوي أو السيلاني أو السيلي
	جِمْبِلِيَاب(جمبلنك) (Ghembeliyabe)		بكسر الجيم وسكون بعده وباء مكسورة ممالة مع كسر اللام	الجمبلي أو الجمبلاوي
	جُوقِيَاب (جُوقِيَنْك) (Ghogeyabe)		بضم ممالة وواو مدّ وكسر ممال وياء مفتوحة	الجوقوي أو الجوقياوي
	تِـمْبُوب (تِـمْبُنْك) (Timboobe)		بكسر التاء وإسكان الميم وضم الباء وواو مد بعده	التّمبوي أو البمبياوي
	رقاب (رقاج) (Raghajo)		بفتح الراء والقاف الممالة وألف بعده، وباء ممالة	الرقوي أو الرقاوي

لقب القبيلة	الأسائر والبطون	ضبطه بالعربية	النسبة بالعربية
(ووَيّ) سو أو صو (فرُبّ)	بريب (بريج) (perejo)	بكسر ممالة ومع الراء كذلك، وضم الجيم ممالة	البروي أو البريجوي
	سومبيب (سمبيج) (sombijo)	بضم ممالة وواو ساكنة مع كسر الباء وجيم مضمومة	السمبوي أو السمبياوي
	سِوَلْب (سِوَلْـجُ) (Sewalbe)	بكسر السين، وفتح الواو وسكون اللام، وباء ممالة	السولبي أو السولي
	سنراب (سنرنك) (Sannaranke)	بفتح الراء والنون الممالة وألف بعده، وباء ممالة	السنري أو السنروي
	باتياب (باتينك) (Pateyabe)	بفتح الباء فكسر ممالة وياء مفتوحة، ونون ساكنة، وباب ممالة بالكسر	الباتوي أو الباتياوي
	بوبياب (بوبياج) (Boboyabe)	بضم ممالة مشبع بالواو، مع ضم الباء ممالة،	البوبياوي أو البوبوي
	يلّقاب (Yellegabe)	بياء مكسورة ممالة، ولام مكسورة، وقاف مكعّب ممال، وباء ممالة	اليلقاوي أو اليلقاوي
(دَعَتْ) باري (دييب)	دَييب (دَييج) (Dayejo)	بفتح الدال وكسر الياء ممالة، مع إمالة الباء	الدَّيَازِيّ أو الدَّيَوِي
	سيْدِيَاب (سيد ينك) (Seidiyanke)	بكسر ممالة وياء ساكنة وكسر الدال وفتح الياء	السيدوي السيدياوي
	سِيرِيَاب (سير ينك) (Seriyanke)	بكسر ممالة وياء ساكنة وكسر الراء وياء مفتوح	السّيروي أو السيرياوي
	وُيَاب (وينك) (Youyanke)	بضمّ الواو وفتح الياء مع الألف بعده	الويوي أو الوياوي
	وُلَرْب (بلار) (Bolaro)	بضم الواو الممالة وفتح اللام وسكون الراء	البلاري أو الولربي
	سِمْبِيَاب (سمب ينك) (Sembiyanke)	بكسر السين الممالة وسكون الميم وباء ممالة وياء مفتوحة بعده ألف	السمبياوي أو السنبوي
	جَافُنَاب (جافنك) (Diafounanke)	بفتح الجيم وألف بعده مع ضمّ الفاء الممالة وفتح النون، والألف وباء ممالة	الجفنوي

وتنضاف على هذه الجداول الأسرُ المجاورة للفلانيين، الساكنة معهم، التي شاركت في نشر العلم تأليفًا وتصنيفًا، بل وتربية، وعلى رأس هؤلاء الفخذ الجاغوي الساكنون بقرية طوبى، واحدهم «جاغا»، ويكتب تارة «زاغا»، وغالبًا ما يضاف على الأعلام المنتسبة إلى هذه الأسر في النسبة «الفوتجلي»، ويندر خلو تلك السلسلات عنها.

- **المطلب الثاني –** التعريف بدولة الأئمة في فوت

دولة الأئمّة، أو الإمبراطوريّة الإسلاميّة، أو دولة «عباسية فوتجلو»، وهي منطقة خصبة، طيّبة المناخ، تقطنها قبائل الفولانيين، الذين نزحوا إليها، وجاهدوا ضدّ الوثنيين، سكّان البلاد الأصليين من الفلانيين، والجالونكيين، وغيرهم، وكانت تضمّ تسع ولايات كبرى، اشتهر منها ولاية (تِمْبُ)، وكانت عاصمة وحاضرة (فُوتَجَلُو)، ومقرّ سلاطينها، وولاية (لاَبِي)، وغيرها من الولايات، كما سيأتي ذكرها، ومن ولي عليها في بداية الخلافة.

وتعدّ (فُوتَجَلُو) إحدى روافد انتشار الإسلام، ومراكز إشعاعه في غربي إفريقيا، وهذا يرجع إلى أنّها عرفت، عبر تاريخها، قيام ممالك إسلامية، وكانت تضمها إمبراطورية تكرور، وتقوم على أسس ومبادئ إسلامية، خلال فترة امتدّت قرنين ونصفًا، قبل الاستعمار الغربي.

وقد ذكر العلّامة إبراهيم بن محمد جاو الخالدي تاريخين لتأسيس الإمبراطورية الفوتية، وأنّها تأسّست عام ألف من الهجرة النبوية، قال: «وقد وقع الجهاد فيها [لب Labe] وفي غيرها عام ألف، فلما أكمل الله لهم الجهاد، وانتشروا في البلاد، واجتهدوا في الدين كل الاجتهاد...».[٣٤] وفي موضع آخر، ذكر أنّه كان عام ألف ومائة وستة وأربعين.[٣٥] ورجّح –رحمه الله تعالى– الأول. وذكر غيره من المؤرخين، أن الإمبراطورية تأسّست عام ألف ومائة وستين.[٣٦]

ويذكّر الباحث القارئَ الكريم بوجود مرحلتين لمنطقة فوتا جلو، من حيث التأسيس، دولة: فوتا الأسرية أو القبلية، ويصطلح عليها كثيرون بدولة (Tecummaji)، وكان اعتماد الدولة في تلك المراحل على رؤساء القبائل والأفخاذ، ويتعدّد الرؤساء بتعدّد القبائل، ما يعني أن كل قبيلة تعتمد على رئيس القبيلة، ويكون اختياره اعتمادًا على معايير عرفية تقليدية، ولا تمتّ غالبًا إلى الشريعة الإسلامية، إلا في الندرة اليسيرة، وعاشت هذه الفترة لمدة خمسة قرون ونيف.[٣٧]

ويلحظ الباحث، أن من حاولوا ذكر إمبراطورية فوتا جلو كدولة، غلطوا بين المرحلتين، ولم يميّزوا بينهما، ودمجوا بعض أسماء قادة المرحلة الأولى، في البعض الآخر،[٣٨] ودرجوا عليه في التشنيع بين الأسر المتنازعة على الملك، بيد أن المرحلة الأولى لم يكن هنالك تنازع على الملك، وإنما النزاعات والخلافات، كانت بين الملوك غير المسلمين، ورؤساء القبائل، عند ازدهار مراكز العلم، لبعض المنتمين إلى تلك القبائل، أو عند كثرة الحركات الدينية والتجمعات الإسلامية، تخوّفًا على زوال ملكهم بالهجوم أو المقاومة.

وأمَّا التأسيس في المرحلة الثانية فبعشرة رجال من مختلف القبائل والعشائر، أهل علم وفقه وفضل، وأصحاب مراكز ومجالس علمية كبيرة، في أقطار البلاد الفوتية، وقادة فكر وقبائل وعشائر وأفخاذ، وعلى ازدياد عدد المسلمين في العشائر غير المسلمة، وكثرة ممارسته تعليمًا وتربية في أجيال وأسر المحلية، وتضاعف عدد المهاجرين إليها من شتى بقاع الأرض؛ إمّا للرعي وتربية المواشي، أو للزراعة لخصوبة

الأرض، أو بحثًا عن العلم لغة وفقهًا، وقد أزعج كل ذلك الملوك، وأصبحوا يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويعتدون عليهم بين الفينة والأخرى، بالقتل تارة، ونهب الأموال أخرى، ومنع استضافة أي جديد بدون إذن من الأعلى، سواء مسلمو الجدد من سكان البلد، أو غيرهم ممّن يأتونهم من ماسنة، أو بوندو، أو فوتا تور، أو جني، أو غيرها، وبالأخص جَافُنَ، وقد كثرت الهجرات الجافنية إبّان تأسيس دولة الأئمة.

ثم منعوا بعد ذلك الاجتماع للتعليم والدرس؛ «فجعلوا يستترون ويقرؤون كتب العلم حتى تراسلوا أن يجتمعوا ويقيموا دين الإسلام، وكانوا عشرة شيوخ وهم»:[٣٩] الشيخ إبراهيم بن نوح بن محمد بن مام كيكل[٤٠] بن سيدي بن عباس، وابن عمه إبراهيم بن مالك بن محمد بن مام كيكل، وهما ـــ تمبويان،[٤١]، وألفا[٤٢] موسن، وهو كيبالي بكاف مكسورة ممالة، وهو كبير أهل فربّ،[٤٣] وجرن محمد سَنْبَ[٤٤] بسين وباء مفتوحتين بينهما نون ساكنة، وهو برياوي بباء مضمومة موطنًا، وتمبوي بطنًا وفخذًا، وجرن سليمان، وجرن سري، بسين وراء مكسورتين وهما تِـمْبِوِيَّانِ بتاء وباء مكسورتين بينهما ميم ساكنة، والشيخ محمد سلّ بسين مكسورة ممالة ولام مضمومة مشدّدة، وهو لبوي، وألفا أحمد وهو كلّاديٌّ بكاف مضمومة ولام مفتوحة مشدّدة، وجرن صالح، وهو كينوي بكاف مضمومة وياء مكسورة، والشيخ محمد ساج بضمّ الجيم، وهو فقمباوي بفاء وقاف مضمومتين.[٤٥]

فاجتمع هؤلاء الشيوخ العشرة في فقمبا، وتذاكروا في العلوم السبعة المتداولة آنئذ: العقيدة والتوحيد، والنحو والتصريف، والبلاغة بفنونها الثلاثة، واللغة بمفرداتها وآدابها، والفقه على مذهب السادة المالكية، وعلم الحديث رواية ودراية، وقرؤوا تفسير القرآن، فلمّا ختموه، تشاوروا في أمر الجهاد، فاتفقوا على أن يقرعوا، وجعلوا القرعة أن يرموا كلّهم شجرة هنالك، سمّوها،[٤٦] فإن أخطأ بها واحد منهم تركوا، وإن أصابوها كلّهم، فقد أذن الله لهم في الجهاد،[٤٧] فقاموا ورموها، فأصابوها كلّهم، ولم يخطئ أحد، فحينئذ ابتدأوا الجهاد، فنصرهم الله -تعالى- على الكفار، فلمّا ظهر الإسلام وغلب أهله، اجتمع هؤلاء الشيوخ المذكورون، وتشاوروا، واتفقوا على أن يستخلفوا عليهم واحدًا منهم، واقترعوا، فوقعت القرعة على هذا الشيخ الإمام إبراهيم بن نوح،[٤٨] فاستخلفوه على فوتجلو[٤٩] كلها، وكان ذلك عام ألف ومائة وستين،[٥٠] فقام بالجهاد أتم قيام، وساس بأحسن سياسة، ورعى بأجمل رعاية.

وثبتت دولة الإسلام في فوتجلو، وغزا تسع عشرة غزوة في مدّة عشرين سنة، ولما بني مسجد تمب، ولّى الشيوخَ الذين استخلفوه، كلّ واحد على مملكة، فقسّموا فوتجلو تسع ممالك.[٥١]

ثم صولح للشيخ العالم فودي حجّ، وأضافوا على الولايات أو الممالك التسع ولايةً و(ديوانا)[٥٢] آخر، واكتمل العدد عشرة كاملة، ولم تزل (الدواوين) وممالك تزداد وتصل أوجّها، إلى أن بلغت خمسًا وعشرين مملكة.

وأمَّا حدودها الجغرافي فإنها كانت تشتمل على جمهورية غينيا كلّها، وعلى غمبيا، وكل غينيا بيساو، وجزء

كبير من السينغال، وبعض السيراليون، وجزء يسير من مالي، باستثناء بعض المدن في غينيا، كمدينة دينغراوي؛ إذ صولح في صالح الحاج عمر بن سعيد بن مختار الفلاني التكروري، ليبني فيها مركزًا علميًّا، ثمّ تحولّت فيما بعد شعلة لدولة «تكرور» الحديثة.

أسماء الأئمة الذين تأسست بهم الدولة:				
	الأسماء:	ألقابهم:	أمكنتهم:	الأسرة أو البطن:
1-	الإمام إبراهيم بن نوح بن كيكل	باري	تمب	دييج السيدوي
2-	الإمام محمد سمب	جالو	بوريا	التمبوي
3-	الإمام «ألفا» موسى	سو	كيبال	البروي
4-	الإمام محمد سلُّ	جالو	لابي	القلاوي الخالدي
5-	الإمام إبراهيم سُرِ بن مالك	باري	تمب	الديازي السيدوي
6-	الإمام محمد ساج	باري	فقمبا	الديازي السيروي
7-	الإمام محمد سري	باه	تِمبِ	الهلياوي
8-	الإمام صالح بَلاَّ	باه	كين	الكلننكوي
9-	الإمام ألفا أحمد	جالو	كلاط	التمبوي
10-	فودي حجّ محمد	كبا	فودي حج	الكبوي
11	الإمام جرن سليمان	باه	تمب مدين	اللوي أو الهلاوي

ولا يسع المقام لسرد أسماء بقية الأئمة والولاة، الذين تعاقبوا بعدهم، وذكر تواريخ وفاتهم، وشيء من تراجمهم، خوف الخروج عن المقصود في الباب.

وهؤلاء الأئمة العشرة، بهم تكوّنت الإمبراطورية الإسلامية الفوتجلوية، على رأس ألف ومائة وأربعين، وعلى إجماع علماء فوتا، كان العلامة ألفا محمد سنب التنبوي البريوي، أعلمهم بكتاب الله تجويدًا وتفسيرًا، وكانت قبل هؤلاء بلدةً يجتمع فيها عدد من المسلمين،كلٌّ يتولى على أهل قبيلته، أو بطنه، وكانت القوة والسلطة للكفار الوثنيين من الجلنكيين، وغيرهم من الفلانيين، فتراسل هؤلاء الأئمة، واجتمعوا في «فُقُمْبَا fougomba»، وتعاهدوا على الجهاد، وإقامة الدين بتحكيم الشريعة، ونشر العلم وأهله، وكانت بالجملة هذه هي البنود الاتفاقية فيما بينهم، وتشاوروا، واتفقوا على استخلاف الإمام إبراهيم بن نوح على فوتا كلها، وعلى أن يستخلف كل واحد من الأئمة بلده.[٥٣]

واستمرّت على هذا العهد بين أخذ وعطاء، إلى أن سقطت على يد المستعمر، بقتل إمامها، الإمام أبوبكر بن الإمام عمر، آخرِ الخلفاء في فوتجلو، ولقد استشهد على يد الفرنسيين في»بوتور» عام (١٣١٤هـ).[٥٤]

المبحث الثاني

التعريف بالمخطوطات الموجودة في «مركز المخطوطات والدراسات الإفريقية»

- **المطلب الأول –** المحتوى العام للمخطوطات في الخزانة

للإحاطة؛ فقد تأسّس «مركز المخطوطات والدراسات الإفريقية» عام ٢٠١٢م بمدينة مامو، بعد عشر سنوات من البحث والتنقيب، والجمع في الخزانات الخاصة، ودور الأسر العلمية، علاوة على الخزانات العامة خارج البلد، في الدول المجاورة لجمهورية غينيا، وبعضًا من الخزانات لجمهوريتي النيجر ونيجيريا، ولَمّا يزل البحث والجمع مستمرًّا، حتى توفر المركز على عدد يتجاوز ستة آلاف مخطوط، مفهرسة كلّها، ما عدا جمْع عامي ٢٠٢١، ٢٠٢٢م، وهو على الطريق بحول الله.

وعليه، فالمركز يحتوي على نوعين من المخطوط: أصلي، ومصور، ومن اللغات: العربية، واللغات المحلية بالحرف العربي، ومن العلوم والفنون ما يلي، مبينًا في الجدول الآتي:

المحتوى العام للمخطوطات في المركز	
القسم الأول: مخطوطات أصلية	القسم الثاني: مخطوطات مصورة
المصاحف الشريفة التفسير وعلومه علم العقيدة والتوحيد وأصول الدين علم الفقه والسياسة الشرعية علم أصول الفقه المواعظ والآداب الشرعية علم السلوك: التصوف والتوسل الأذكار والأوراد الأدب: الشعر والنثر والمراسلات علم النحو والصرف علم العروض علم التاريخ والتراجم علم الفلك علم الحساب الطب التقليدي	التفسير وعلوم القرآن علم مصطلح الحديث علم التوحيد وأصول الدين علم الفقه والسياسة الشرعية علم أصول الفقه علم السلوك التصوف والتوسل والزهد علم الوعظ والإرشاد الآداب الشرعية الأذكار والأوراد علم التربية والتعليم علم التاريخ علم الأنساب علم الأسانيد علم التراجم الشعر والمراسلات علم النحو والصرف علم البلاغة علم العروض علم الفلك والفراسة والرؤيا الطب التقليدي.

والقسم الثالث: مخطوطات نشرت مصورة، وهي قليلة جدًّا. والقسم الرابع: مخطوطات باللغات المحلية، هي أيضًا على غرار ما تقدّم من مخطوطات أصلية، باللغة الفولاتية، ومخطوطات مصورة باللغة نفسها، ومخطوطات نشرت مصورة باللغة الفولاتية، ولغة ماندي وسوس، وهو قليل جدًّا.

محتوى المخطوطات باللغات المحلية	
القسم الثالث: مخطوطات نشرت مصورة	والقسم الرابع: مخطوطات باللغات المحلية
علم أصول الدين علم الفقه الأذكار الآداب والتعليم التاريخ والأنساب الشعر المراسلات النحو والصرف علم العروض	أصلية باللغة الفلانية: علم الفقه علم التوحيد والعقيدة علم السلوك والآداب والرقائق علم التاريخ والأنساب المراسلات الشعر الطب التقليدي ومصورة باللغة الفلانية الشيء نفسه

وأمَّا أقدم مخطوط فيه فمصحف يعود تاريخ نسخه إلى عام ٩٥٦هـ، ونسخة من شرح ابن عقيل على الألفية، ويليه في القدم نسخة من الرسالة لابن أبي زيد، نسخ عام «شع» بحروف الجمل (١٠٧٠هـ). وأحدث نسخة قصيدة للشيخ أحمد وور بن العالم إبراهيم الداري الفوتجلي، امتدح بها أمير المؤمنين عبدالله بن الإمام أحمد عام (١٣٥١هـ).

- **المطلب الثاني** – دراسة وصفية لأنموذج من المخطوطات

بعد سرد المحتوى العام لمخطوطات المركز، وقع اختيار ثلاث مخطوطات للدراسة والكشف عن هويتها، ومحتواها، ومدى إفادتها في مادتها، مع بيان ميزاتها العلمية، وإراءة القارئ الكريم طريقة جذاذتها في الفهرس الكودي كولوجي، والإيجاز على مقتضى الحال والمقام، وإليك أسماء المخطوطات الثلاثة:

علم الفلك: «قنطرة الحساب»، للعالم بدر الدين[٥٥] أبي مروان بَكْر بن الهمام عماد الدين العلامة عثمان تان[٥٦] بن الفقيه المدقق الزاهد عبد الله الفلاني السيلي[٥٧] نسبًا، الجلجلي،[٥٨] من علماء القرن الثاني عشر، كان ملمًّا بعلم الفلك، وله فيه مصنفات عديدة، ومنظومات متضافرة، وقد ورد في بعض حرود المتون، وفواتح بعض مصنفاته، ما يدلّ على عظمة شأنه في فوتجلو وخارجها، وسعة أفقه في العلم، وكان ممّن يشدّ إليه الرحال، ومصنفاته كانت تصل للآفاق البعيدة، وعلى ضرب المثال نأخذ مقطعين من تلك الحرود:

«شيخ الشيوخ» «أستاذ علماء فوت بكر الملقب بط،»[٥٩] وتارة يسمى «أبو بكر البيضاوي»،[٦٠] و«الشيخ الفقيه بدر الدين آخر العالمين العاملين موتا بن الفقيه الزاهد الورع شيخ الشيوخ عثمان تان».[٦١]

وفيما يلي الجدول المختص ببيان جذاذة المخطوط، ومحتواه العام، ما يرفع عنه الجهالتين؛ العين والحال، وإليك الجدول:

«قنطرة الحساب»: كتاب يحوي على عدّة فصول، وهي على النحو الآتي في الجدول المتضمن لعدد أبياتها:		
	الفصول والأبواب:	عدد الأبيات
١-	المقدمة	٧
٢-	فصل في مطلق العام وما للعربية من الأيّام	٨
٣-	فصل في الحرامية من شهورها والمهمات من أيامها	٧
٤-	فصل في مولد المختار في مضموم العام	٤
٥-	فصل في العام العجمية وإنها بالشمس الحسية	٩
٦-	فصل في ترتيب البروج وتسميتها	٣
٧-	فصل في ترتيب المنازل وقسمها على البروج الأوائل	٢٠
٨-	فصل في موضوع الشهور لها وانحصارها في أيامها	٩
٩-	فصل في مدخل يناير	١٥
١٠-	فصل في الفصول الأربعة وكيفية دخولها	١٠
١١-	فصل في مداخل الليالي ذوات البرد وخروجها، ومدار الأزمنة من مطرها وقحطها وحرارتها وبرودتها	٣٣
١٢-	فصل في ترتيب الدراري على الأفلاك الجواري	٥
١٣-	فصل في درى القمر وجميع تصاريفه على الأثر	٩
١٤-	فصل في درية الشمس ومالها من التصاريف	٤
١٥-	فصل في بقية الدراري وتصاريفها في المجاري	١٠
١٦-	فصل في يوم يناير في العام الزائر	١٠
١٧-	فصل في مسمى الازدلاف	٢
١٨-	فصل فيما هو الأسّ وكيف يدرك إن فقد وكم هو إن وجد	٩
١٩-	فصل في درك المجهولات من الأعداد المطلوبات	٦

«قنطرة الحساب»: كتاب يحوي على عدّة فصول، وهي على النحو الآتي في الجدول المتضمن لعدد أبياتها:		
	الفصول والأبواب:	عدد الأبيات
٢٠-	فصل في منزلة الشمس	٣
٢١-	فصل في قسمة البروج على الأشهر ومدخل الشمس فيها	٧
٢٢-	فصل في معرفة الأوقات ليليها ونهاريها	٩
٢٣-	فصل في معرفة الساعات	١٢
٢٤-	الخاتمة	١٦
مجموع عدد الأبيات: ٢٢٧ بيتًا		
لمركز المخطوطات والدراسات الإفريقية خمس نسخ خطية ملف (١٣) رقم: ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٦٠، باختلاف في عدد ألواحه ومساحتها		

وقد افتتحه بقوله بعد البسملة والتصلية: «قال الشيخ الفقيه الأستاذ النحوي اللغوي قطب العارفين، وعلم المهتدين، أبو مروان بكر بن الفقيه عثمان بن عبد الله السيلاني الجلاوي اللباوي الفلاني، غفر الله له بمنّه وكرمه آمين:

الْحَمْدُ لِلَّهِ بِلاَ انْتِهَاءِ ... مُدِيرِ الأَفْلاَكِ عَلَى الرَّخَاءِ
ثُمَّ صَلاَةُ اللهِ وَالسَّلاَمُ ... عَمَّهُمَا الْبَقَاءُ وَالدَّوَامُ
عَلَى مُحَمَّدٍ حَبِيبِ اللهِ ... وَالآلِ وَالصَّحْبِ بِلا تَنَاهِ
فَهَذِهِ قَصِيدَةٌ تُفِيدُ ... عِلْمَ الْحِسَابِ مَنْ بِهِ يُرِيدُ
لِيَهْتَدِي بِذَاكَ صَوْبَ الْقِبْلَهْ ... إِذِ الصَّلاَةُ هِيَ رُكْنُ الْمِلَّهْ
سَمَّيْتُهَا قَنْطَرَةَ الْحِسَابِ ... مَنْ جَازَهَا يَدْخُلُ فِي ذَا البَابِ
وَاللَّهَ أَسْتَوْهِبُ الإِسْتِعَانَهْ ... خَتْمِي بِمَا أَرَدتُّهُ تِبْيَانَهْ

وآخره:

هَذَا تَمَامُ مَا بِهِ أُعَانِي ... وَالْحَمْدُ لِلَّهِ بِلاَ تَنَافِي
وَقَدْ حَذَفْتُ ضِمْنَهَا شُيَيْئَهْ ... خَوْفًا مِنَ الْعُصَاةِ مِنْ مُرَيْئَهْ
يَا رَبِّ أَدْعُوكَ عَلَى الْخُطُوبِ ... تَغْمُرُنِي فِي لُجَجِ الذُّنُوبِ
حَمَلْتُهَا فِي عَاتِقِي وَالْكَاهِلَهْ ... أَوَ اثْقَلَتْ ظَهْرِي وَنَفْسِي غَافِلَهْ
بِاللَّهِ لَوْلاَ عَفْوُكَ الْعَظِيمُ ... أَيْقَنْتُ بِالْغَرْقِ يَا رَحِيمُ

يَـــا رَبِّ لاَ أَرْجُـــو سِـــوَى رُحْمَـــاكَ ... يَـــوْمَ مَصِيـــرِنَا إِلَى لُقْيَـــاكَ
مَـــا حِـيلَتِـــي إِذْ جَـــاءَكَ الْعُبَيْـــدُ ... بِـزَادِهِـــمْ سِـــوَايَ يَـــا وَجِـــيدُ
أَقْبَلْـــتُ لاَ كَـــفِّي تَحُـــوزُ إِلَّا ... وِقْـــرَ ذُنُـــوبٍ جِـئْـــتُهَا مُقِـــلاً
أَرْجُـــوكَ يَـــا رَبِّ وَنِعْـــمَ الْمَـــوْلَى ... بِحَـــطِّ مَـــا فِي ظَهْـــرِي اقْـــلَوْلَى
وَالسِّـــتْرِ بَـــيْنَ الْخَلْـــقِ وَالْغُفْـــرَانِ ... بِأَنْـــعُمٍ تَجِـــلُّ فِـــي اللِّسَـــانِ
وَالْقَلْـــبِ أَنْ يَخْطُـــرَ فِيـــهِ مِـــثْلُهُ ... حَـــتَّى يُـــرَى عَبْـــدُكَ فَـــاضَ فَضْلُـــهُ
يَغْـــبِطُهُ الْأَوَّلُ ثُـــمَّ الْآخِـــرُ ... بَاطِـــنُهُ النِّـــعْمَةُ ثُـــمَّ الظَّاهِـــرُ
وَالْطُـــفْ بِمَـــا كَانَ لَـــهُ مِـــنْ وَالِـــدِ ... وَوَلَـــدٍ مِـــنْ طَائِـــعٍ وَجَاحِـــدِ[٦٢]

مع ما يتخلّل هذا النظم من اختيارات فلكية، وحسابات نجومية رائعة، يدركها المتخصص، ويعلم كنه تعمّق العلّامة في هذا العلم، وقد كان راضيًا بكتابه، ويحيل إليه في غير ما مرّة، كقوله في منظومته «وسيلة الأمان» في آخره:

وَكُلُّ مَا لَهُ مِنِ انْتِسَابِ ... طَالِعُهُ فِي «قَنْطَرَةِ الْحِسَابِ»[٦٣]

علم الحساب: «حساب الضرب» للعلامة الفرضي سعد بن الشيخ العالم العامل إبراهيم بن الفقيه، المدقق الزاهد عبدالله الفلاني السيلي نسبًا، الدلني وطنًا، ثم اللبوي مملكة، الفوتجلي دولة، كان من علماء القرن الثالث عشر الهجري، توفي سنة (١٢٧٠هـ)،[٦٤] صاحب مصنفات ناضجة، وله ما يربو على ستين مؤلّفًا في مجالات مختلفة، وعلوم شتى، وقد صُنّف في حقه منظمات ومنثورات، وهي على الطول والاختصار، قدر الحاجة.

فهذا الكتاب، يعدّ منظومة علميّة حسابية، تقع في أكثر من خمسمائة بيت، يحتوي على عدّة فصول، ومقدمتين، فاتحة فيها ذكر فضائل علم الحساب، والمجالات الواسعة لعلم الحساب، وما اختصّ به نظمه، ومقدمة في ذكر القلم الغبّاري، وأشكاله، ومراتب الأعداد ، مع شيء من الضوابط والقواعد في هذا العلم، ثمّ «باب الجمع»، و«باب الطرح»، و«باب الضرب»، ثم ختم هذا الباب بـ«فصل في قواعد بها يستعان في بعض الأحيان»، لخّص فيه جدول الضرب كلّه بضوابط معيّنة، ثمّ «باب القسمة»، وجعل له «فصلا»، و«باب في حل الأعداد إلى أئمتها»، وجعل له فصلًا، وفصلًا آخر «فصل في صفة العمل بالطروح»، ثم «باب التسمية»، و«فصل في قسمة المحاصات»، وفي آخره «باب في الاختبار».

«قنطرة الحساب»: كتاب يحوي على عدة فصول، وهي على النحو الآتي في الجدول المتضمن لعدد أبياتها:		
	الفصول والأبواب:	عدد أبيات الفصل
١-	الفاتحة	١٢
٢-	مقدّمة	١١
٣-	باب الجمع	٣٠
٤-	باب الطرح	٢٢
٥-	باب الضرب	٨٦
٦-	فصل في قواعد بها يستعان في بعض الأحيان	١٦
٧-	باب القسمة	٣٧
٨-	فصل	٥
٩-	باب في حل الأعداد إلى أئمتها	١٢
١٠-	فائدة	٣
١١-	فصل في صفة العمل بالطروح	٢١
١٢-	باب التسمية	١٢
١٣-	فصل في قسمة المحاصات	٢٧
١٤-	باب في الاختبار	٢٣
مجموع عدد الأبيات: ٣١٧ بيتًا		
لمركز المخطوطات والدراسات الإفريقية نسختان خطيتان ملف (١٤) رقم: ٦، ٧، باختلاف في عدد ألواحه ومساحتها.		

- **الطب التقليدي:** «فرحة الأطباء وراحة الفقراء» للعلامة المفنن، الطبيب: محمد بن الإمام إبراهيم بن الشيخ نوح بن العلامة بَابَ. تأليفه كان سنة ألف ومائتين وتسع وعشرين للهجرة المطفية.

والكتاب يحتوي على تسعة وثلاثين فرعًا معنونًا له في الكتاب، عدا المقدمة والخاتمة، وعلى أنه يذكر أنواعًا من العقاقير المناسبة لكل مرض تعرّض له بالذكر، وعلى ضرب المثال قال: وجع البطن دواؤه .... خذ له كريرة ودقيق قرظ ثمرته قدر ملء الكف، وتطبخ وتجعله في مخيض، وتشربه أو تجعله في زبد، فتشربه بلا لبن فيبرأ...

بداية المخطوط: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا، يقول الشيخ محمد بن إبراهيم بن نوح المنكسر فؤاده لأجل جرمه، وقلة علمه وعمله: أؤلف هذا الكتاب، لعل الله

يرحمني به، لقصدي نفع المسلمين، ولعل الله يدخلني في زمرة المؤلفين، تجديدًا به الأركان البدنية؛ إذ.. لا يصلح جميع ما يلزمه الآدمي، إلا بصحة البدن. ومن قال: «ترك التداوي أفضل لقد لغى»؛ لأنه سنة نبوية، وقد تداوى واحتجم وشرب الدواء، مع توكّله؛ إذ ترك الأسباب لا يجوز...

وفي آخره: فهذا دواء الإنسان، ولولا خوف التطويل، لزدت فيه دواء الدواب، كوجع البطن للفرس، فخذ صبرًا سواء خضرًا أو يابسًا، فتدقّه وتجعله في الماء، وتدخله في فم الفرس أو منخره، فتصح اسم الصبر أي كح، ولكن الطول يؤدي إلى الملل، يؤدي إلى الترك، والترك يؤدي إلى الجهل، والجهل يؤدي إلى البدع، والبدع يؤدي إلى الكفر، أعاذنا الله، وفوائده: تسع وتسعون فائدة، وسميته: «فرحة الأطباء وراحة الفقراء». ومؤلفه الشيخ الفاهم كثيرًا من الفنون، حافظ كتاب الله، محمد بن برام بن نوح بن باب، ألفه سنة ارتداد بلد مكر. عام ١٢٢٩ من الهجرة. كاتبه محمد بن مود عبدالقادر بوي كتبته لصلة الرحم فقط، لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «صلوا أرحامكم ولو بسلام»، اللهم اغفر لي ولشيوخي ولأبي ولأمي، ولجميع المسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، إنك على كل شيء قدير. والمخطوط على ست عشرة لوحة بالكاغد المتوسط الحجم، العريض المساحة، عليها طرر وحواش وتعليقات، بخط فوتي واضح، وفيها أخطاء، لعبت بها أيدي النسخة لعلة المستوى.

محتوى العام المخطوط			
١-	مقدمة	٢١-	عسب الذكر
٢-	وجع الأذن	٢٢-	ورم الأنثيين
٣-	قروح الوجه	٢٣-	ورم الجسد
٤-	ثقبة الشفتين	٢٤-	دواء الأمراض التي تصيب الصبي
٥-	اضطراب اللثة	٢٥-	مرض الشفة للصبي
٦-	وجع الأسنان	٢٦-	السعال كزكام وضيق صدر
٧-	ورم الذبح	٢٧-	وجع الأعضاء
٨-	وجع الحنك	٢٨-	البول على الفراش
٩-	وقروح الرقبة	٢٩-	دواء الأمراض التي تصيب المرأة
١٠-	وجع العين.. وشقيقته	٣٠-	ديمومة الحيض
١١-	وجع القلب.. والصدر	٣١-	إزالة البكارة وردها
١٢-	السعال	٣٢-	تنظيم النسل

محتوى العام المخطوط			
١٣-	وجع الكبد	٣٣-	منع الإنجاب
١٤-	وجع الطحال	٣٤-	المعينات على الحمل
١٥-	وجع البطن	٣٥-	تسمين الجنين
١٦-	وجع الجنب	٣٦-	تخفيف غيرة المرأة
١٧-	وجع السرة	٣٧-	دواء السمّ
١٨-	وجع الخاصرة	٣٨-	سم الحية
١٩-	وجع تحت السرة	٣٩-	لسع العقرب
٢٠-	وجع الزحيرة	٤٠-	الخاتمة
٢١-	سلس البول		حرد المتن

وفي خضمّ هذه المعلومات المتضافرة، والمخطوطات الكثيرة المتناثرة، يقدم الباحث بعض الجذاذات التي عليها عمد في البحث، وجمع المخطوطات بين الخزانات الخاصة، وأيدي دور العلم وأحفادهم، على أن جذاذة الفهرسة للمركز مثناة بعد هذه، إلى أن تتم بها الفائدة، ونختم بها الباب، وهو لب اللباب، وخاتمة الكتاب، وها هي استمارة المركز لجمع المخطوطات:

١. مالك المخطوط: .....

٢. القرية، أو المدينة: .....

٣. المحافظة: .....

٤. الإقليم: .....

٥. الرقم التسلسلي: .....

٦. تاريخ الحصول عليه: .....

٧. المؤلف: .....

٨. الناسخ: .....

٩. مكان النسخ: .....

١٠. تاريخ النسخ: .....

١١. عدد اللوحات: .....

١٢. عدد السطور في كل لوحة: .....

١٣. قياسات الغلاف: .....

١٤. قياس النّص: .....

١٥. الموضوع: .....

١٦. حالة المخطوط: .....

١٧. ملاحظات: .....

الجذاذة الثانية للفهرسة الخاصة بالمركز:

الرقم التسلسلي:

عنوان المخطوط:

اسم المؤلف:

تاريخ التأليف:

سنة الوفاة:

اسم الناسخ:

مكان النسخ:

تاريخ النسخ:

نوع الخط:

لون الحبر:

عدد الألواح:

عدد الأسطر:

مقاييس الغلاف:

مقاييس النصّ:

بداية المخطوط:

نهاية المخطوط:

الموضوع:

حالة المخطوط:

الملاحظات:

الخاتمة

وفي حضون هذه الجولة السريعة، برحاب آفاق عالم المخطوطات، مرورًا بأهم المحطات، وسبل الاهتداء إلى كنهها الفوتوي، بخطها الفريد، من قراءة شيء من المصطلحات، التي يتكرر ورودها فيها؛ السياسية منها والاجتماعية، مهملًا الجانب الاقتصادي، وصولًا إلى البيان والكشف عن دولة الأئمة الفوتجلوية؛ ليرى أول مرّة ذكرًا في بحث، يستضيء بأنوار القراء، ومصباح الباحثين، وهي فاتحة، مع استنظار المحتوى العام لمركز المخطوطات والدراسات الإفريقية، وانتهاء إلى دراسة وصفية لأنموذج من المخطوطات، وعمدنا على ثلاث مخطوطات، في ثلاثة علوم؛ وهي:

- علم الحساب الفلكي، قنطرة الحساب للعلامة أبوبكر بن العلامة عثمان بن الفقيه الزاهد عبد الله الفلاني السيلي.
- علم حساب الضرب، حساب الضرب للعلامة سعد بن إبراهيم بن عبد الله الفلاني السيلي.
- علم الطب التقليدي، فرحة الأطباء وراحة الفقراء للعلامة الطبيب محمد بن إبراهيم بن نوح الفلاني الكيناوي. على أن هناك عشرات العلوم والفنون المختلفة، وآلاف المخطوطات.

مع شمولية البحث جوانب متعدّدة: تاريخية، جغرافية، علمية، وإيراد عدد من الأعلام، ومعلومات دقيقة يهتدي بها الباحث إلى المخطوطات الفوتية، بل والإفريقية الغربية؛ إذ يقل انعدام مصنفات الفلانيين في المنطقة كلّها، وهم الثاني بعد العرب، إن لم يكونوا الأول في السباق التأليفي، والخزانات العامة والخاصة تشهد على ذلك، وعن قناعة أتحدث.

ومن الجدير بالذكر في هذا الموقف، أن التحاثَ على الاهتمام بالتراث: دراسة، وتحقيقًا، وشرحًا، من الواجب على علماء المنطقة والطلبة؛ حتى يَحَسَّ كلّ فرد المسؤولية تجاهه، ويتم به إخراجُه من عالَم المفقود، إلى عالَم الوجود؛ إذ من المعلوم بالضرورة، أن حضارة أيّة أمة أو قبيلة، تُعرف بالآثار التي تركوها وراءهم، وهذه الآثار، قد تكون مباني، ومعابد، ومدنًا مطمورة في الأرض، يكشف عنها علماء الآثار عادة، وقد تكون هذه الآثار إنتاجًا علميًّا أو أدبيًّا، تحمله مخطوطاتهم، وأيًّا ما يكن نوع الأثر الحضاري والثقافي والعلمي، فإنّه يدل على ما بلغه أصحابه من رقي فكري ومهاري.

الهوامش والإحالات

(١) الشاهد البوشيخي، مصطلحات النقد العربي لدى الشعراء الجاهليين والإسلاميين: (قضايا ونماذج ونصوص)، (إربد: عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٩م)، ٤٢. بواسطة د. فريد الأنصاري، أبجديات البحث في العلوم الشرعية محاولة في التأصيل المنهجي، (منشورات القرآن، ١٩٩٧م)، ١٣٤.

(٢) د. قيس بن محمد آل الشيخ مبارك، الجامع بين الأمهات لابن الحاجب ج١، ت: أحمد بن عبد الكريم نجيب، (د. ن، ٢٠١٠م)، ١٥.

(٣) فهو نحت من كلمتي: «غينيا كوناكري»، وهي الجمهورية الغينية. إن صح التعبير به هكذا.

(٤) بتصرف، شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج١ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٥م)، ٢٣٠.

(٥) بتصرف، ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٣، (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٢م)، ١٠٧٦.

(٦) وهو سن علي كلن دخل السلطة في سنة ٨٦٩هـ، ومكث بها سبعًا وعشرين، أو ثمانيًا وعشرين سنة، (١٤٦٤ - ١٤٩٢م).

ينظر: الفقيه أحمد بابا التنبكتي، وعبد الرحمن السعدي في تاريخ السودان، (د. ن، د.ت)، ٢٠٨.

(٧) مخلوف بن علي البلبالي، الفقيه الحافظ الرحلة، اشتغل بالعلم على كبر - على ما قيل - فأول من أخذ عنه الشيخ الصالح عبد اللَّه بن عمر بن محمد أقيت ببلاد ولاتن، قرأ عليه الرسالة ورأى منه نجابة، فحضه على العلم، وترك التجارة، فحصل له الرغبة في الطلب، فسافر للغرب، فأدرك ابن غازي وغيره، فأخذ عنه، وانتشر علمه، واشتهر بقوة الحافظة حتى ذكر عنه فيه العجب، حتى قيل إنه يحفظ صحيح البخاري. ثم دخل بلاد السودان كبلد كندوكش وغيرهما، وأقرأ أهلها، وجرى له هناك نوازل وأبحاث مع الفقيه العاقب الانصمني، ثم دخل تنبكت، ودرس هناك، ورجع، ثم رجع إلى الغرب، فدخل مراكش، ودرس بها، وسمّ هناك، فرجع لبلاده، وتوفي بعد الأربعين وتسعمائة. ينظر: أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، (ليبيا: دار الكاتب، ٢٠٠٠م)، ٦٠٤.

محمد مخلوف، والشجرة النور الزكية في طبقات المالكية، ج١ (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م)، ٤٠١.

(٨) أحمد بابا التمبكتي، معراج الصعود إلى نيل حكم مجلب السود، (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، ٢٠٠٠م)، ٩٥.

(٩) في الأصل: «سل»، وسلا: هي التي قال عنها ياقوت إنها « مدينة بأقصى المغرب ليس بعدها معمور ... ثم يأخذ البحر ذات الشمال وذات الجنوب، وهو البحر المحيط فيما يزعمون، وعلى ساحل جنوبه، وما سمته بلاد السودان». تعليق من محقق الكتاب.

(١٠) تكرور: دولة أقامها الفلان قديمًا في شمالي السنغال، وإسلامهم قبل هذا بكثير.

(١١) أبو محمد علي الظاهري، رسائل ابن حزم الأندلسي، ج٢ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٧)، ١٣٣.

(١٢) أبو عبيد عبد الله الأندلسي، المسالك والممالك، ج٢ (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢م)، ٣٥٩-٣٦٠.

(١٣) وهي تكتب في المصادر على عدّة أنواع، والغالب كتابتها هكذا: «فوت جلو»، وبعضهم يكتبها كلمة واحدة دون أي فصل؛ هكذا: «فوتجلو»، وقد يشبع التاء بالألف هكذا «فوتا جلو»، وعند المتأخرين يكتبونه هكذا: «فوتا جالون»، والأولى الاكتفاء بأسلوب الأوائل، لكونهم أدرى بالعلل، والغرض الذي به سميت بهذا الاسم.

* موقع «فوتا» في الخريطة الغينية وإستراتيجيتها وأثرها الإسلامي. تنقسم جمهورية غينيا من الناحية الإدارية إلى أربعة أقاليم، ويعدّ إقليم فوتا جلون واحدًا منها، وتسمى غينيا الوسطى، وهي قلب غينيا ماديًّا ومعنويًّا، بله موطن العلماء والشعراء والفقهاء.

(١٤) فوتا طور، أو «تور»، أقدم ما وصل إلينا من ذلك ما في كتب السيرة كابن هشام، وابن الأثير، وألفا هاشم، أن اسم «تور» أحد أبناء سيدنا إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، أمَّا معناها بالفلانية فهو الصنم، وفي الحضارة الفرعونية القديمة في مصر أربعة معابد، منها: معبد تور، وفيه صنم منحوت من عجل اسمه: (كاو)..

وهو منطقة، كان يطلق عليها قديمًا بتكرور، ويقع الآن جزء منه في السينغال، والجزء الآخر في موريتانيا، وقد تعاقب على حكمها خمس أسر من الفلانيين، وقد عاشت ردحًا من الزمن قبل بعثة النبي ﷺ، واستمرت إلى سقوط حكم دينكوب على الأئمة فيها، وتعاقب عليها الحكم الإسلامي الصرف، إلى مجيء الاستعمار الغربي المتسربل بالدمار.

ينظر: أبو معاذ أحمد عمر محمد صه، غاية الأرب في رحلة الطلب (القاهرة: دار الصالح، ٢٠١٨م)، ٣٦٠.

(١٥) ماسنا: بلدة في دولة «مالي» حاليًّا، تقع في مُحافظة «سيغو» و (ماسن) من إحدى الأماكن التي تقطنها القبائل الفلانية، كـ«فوتا» تور في السنغال. وكانت (ماسن) مملكة قديمة جدًّا قبل الإسلام، وتعاقب على حكمها أسرة قلّاب (جالو) الفلانية، ما يربو على اثني عشر قرنًا، وكان يجاورها (سيغو)

الْمملكة البنبارية الوثنية الْمستبدة، إلى أن جاء العلامة الشيخ أحمد محمد أبوبكر، الشهير بـ سيكو آمد حمدي بوب، أو أحمد لوبو (١١٨٩هـ، ت: ١٢/ربيع الأول ١٢٦١هـ) رحمه الله، وأسس مملكة (ماسن)، وكان تأسيسها في صباح يوم السبت ١٣ جمادى الأولى (١٢٣٣هـ)، الموافق: (٢١/ مارس/١٨١٨م). شاء الله في هذه الصبيحة أول صدام مسلح بين الجيوش الوثنية المحالفة من بنبارا وبوبو.. وبين جيش سيكو آمد الْمكون من تلاميذ وبعض أصدقائه... وكتب الله لهم النصر، وأقر الله عينه برؤية نتيجة كفاحه في الدنيا قبل الآخرة، وعاش بعد تأسيس الإمارة (٢٨) عامًا.

ينظر: الباحث نوح عيسى سيدبي، تطبيق أحكام الشريعة في إمارة ماسن الإسلامية ما له وما عليه (د. ن، د.ت)، ٧٧-٩٧. بتصرف.

محمد جاكايتي، «الفلانيون وإسهامهم في الحضارة الإسلامية بمالي خلال القرنين (١٢ - ١٣ه/ ١٨ - ١٩م)» (رسالة دكتوراه، جامعة الزيتونة، ٢٠٠٧م)، ٣٠.

* وتكتب في المصادر القديمة على أنماط مختلفة، منها: ماسن، وبعضهم «ماسنا» بألف بعد النون، و«ماسينا»، أو بإلحاق هاء السكتة بآخره هكذا:«ماسنة». وهي غير «ماس» الفوتجلوية.

(١٦) وهذه الأسماء الأربعة مذكورة في التوراة الموجودة اليوم بيد أهل الكتاب، وهو الابن الثاني لحام، الذي هو ابن نوح عليه السلام. الله تعالى أعلم وأحكم.

(١٧) وعليه قول الشاعر في: محمد صه، غاية الأرب في رحلة الطلب، ٦٤٧:

الْأَرْضُ لِلَّهِ لَكِنْ «فُوتَ» مَنْبَعُهُمْ /// وَكُلُّ مَا قِيلَ عَنْهُمْ غَيُّرهُ زُورُ

(١٨) ويعرف إقليم فوتا إداريًّا في غينيا بغينيا الوسطى، وهو إقليم جغرافي مميز، ذو طبيعة جبلية، ويمتاز بثروة مائية وفيرة، بل ويشكّل منبعًا مائيًّا مهمًّا للجمهورية الغينية. إن إقليم فوتا جلون يمتاز بالنمو الديمغرافي المرتفع، الذي يسهم في الرفع من المستوى الاقتصادي لغينيا، ويعدّ عنصرًا مهما في هذا المجال؛ فسكان هذه المنطقة يمثّلون في التركيبة السكانية نسبة كبيرة، تبلغ نحو ٤٠٪ من مجموع السكان، وقوة لها تأثيرها البالغ في اقتصاد البلاد؛ حيث إنهم يملكون زمام تجارة الاستيراد والتصدير، ولهم ولع كبير بالتجارة.

ينظر: كوناتي موسى عمر، الحركة الأدبية في فوتا جلون بغينيا، غير منشور.

(١٩) لذا نجد سكان البلاد الفوتية من أكثر سكان الشعب الغيني استهلاكًا للألبان الطرية،

ينظر: محمد الأمين جابي، روائع آل كرموخبا في فوتا طوبى، غير منشور.

موسى عمر كوناتي، الحركة الأدبية في فوتا جالون بغينيا، غير منشور.

(٢٠) ينظر: محمد سمب باه الفلاني الشرقوي، إمبراطورية فوتا جلو - علم أعلام سياسة تقاليد، بحث غير منشور.

(٢١) محمد فودي جابي، إنهاض الهمم، في ذكر مناقب الآباء والأجداد ذوي القمم (كاسماس، د. ت)، ١٨.

(٢٢) سمب، إمبراطورية فوتا جلو - علم أعلام سياسة تقاليد.

(٢٣) أبو الحسن الماوردي، الأحكام السلطانية، تحقيق: أحمد البغدادي، (الكويت: دار ابن قتيبة، ١٩٨٩م)، ١٥.

(٢٤) أبو المعالي الجويني، غياث الأمم في التياث الظلم، تحقيق: عبد العظيم الديب، (قطر: مكتبة إمام الحرمين، ١٩٨١م)، ٢٢.

(٢٥) تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، ج٤، تحقيق: محمد رشاد سالم، (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٨٦م)، ١٠٦.

(٢٦) محمد سمب باه الشرقوي، شكر الإله في علم الفرائض، دراسة وتحقيق وشرح، (رسالة ماجستير، ٢٠١١م)، ٥٦.

(٢٧) جرن علي بن محمد بوبديم، «تاريخ الوقائع» مخطوط، (د. ن، د. ت).

عبد الرحمن اللبوي، بنات أفكاري، ط٥ (كوناكري: د. ن، ٢٠١٩م)، ٤٧.

عمر السالمي، الكنز الأوفر- في سيرة شيخ الإسلام الحاج سالم الأكبر (باريس: البستان، ١٩٩٢م)، ٧٥.

(٢٨) علي بن محمد اللبوي، تاريخ لب، تحت الدراسة والتحقيق، مخطوط في خزانة مركز المخطوطات والدراسات الإفريقية، جمهورية غينيا.

(٢٩) سمب، إمبراطورية فوتا جلو - علم أعلام سياسة تقاليد.

(٣٠) محمد الفلاني الكشناوي، مخطوط، بغية المؤالي في ترجمة الشيخ محمد الوالي، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية).

(٣١) قال الدكتور عمر با: ألفا مختصر من الفاهم، وهو لقب يعطى لإنسان قرأ القرآن وفسره وفهمه، ويرادفه لقب (التفسير)، وكثيًرا ما يجري في الألسن في غربي إفريقيا، وخاصة عند الفلانيين (ألفا فلان) أو (تفسير فلان)، يعني ذلك أنه فسر القرآن لدى شيخ معترف به، مُنِح اللّقب بعد إجراءات معيّنة.

عمر با، الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا، ط٣، (بيروت: دار المنهاج للنشر والتوزيع، ٢٠١٥م)، ٣٩٢.

(٣٢) عبد النعيم ضيفي عثمان، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس سيرة الحاج أسكيا محمد وتاريخ إمبراطورية صنفي الإسلامية – محمود كعت التنبكتي (٧٧٧-١٠٠٠/ ١٢٧٥- ١٥٩١م) (القاهرة: دار العلوم للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥م)، السعدي في تاريخ السودان.

إبراهيم الخالدي، الماجد في ترجمة الوالد، مخطوط في خزانة مركز المخطوطات والدراسات الإفريقية جمهورية غينيا.

(٣٣) وعلى ضرب المثال، ما وقع عليه الأخ الأستاذ أبو محمد معاذ أحمد عمر محمد صه، في قصيدة العلامة محمد بن سعيد المنبوي رحمه الله تعالى، حين قام بشرحه، وأسماه: «تحفة الأحباب شرح لامية الطلاب»، فقد أحال المصنّف إلى قرية غير معروفة، وهمًا منه أن كلمة «السيلي» التي جاءت معقب ذكر اسم المؤلف، نسبة إلى قرية من قرى فوتا ماسينا، أو فوتا تور، والأمر على خلاف ذلك، والشيخ المؤلف من فلاني فوتا جلو، وهو سيلي البطن والفخذ، وجلوي اللقب، ومنبوي المسكن، وشكر الله للشارح؛ فلمّا نبِّه على ذلك، رجع عنه، وهو شأن الكبير، ذكرته من باب التنبيه لا التمويه، كما سيأتي بيانه في الجدول الآتي:

(٣٤) إبراهيم الخالدي، تاريخ الخالدية، مخطوط في خزانة مركز المخطوطات والدراسات الإفريقية، جمهورية غينيا.

(٣٥) الخالدي، الماجد في ترجمة الوالد.

(٣٦) ينظر: إبراهيم التسليمي، كتاب البشرى في شرح المرقاة الكبرى (د. ن، د.ت)، ٣٠٢، وبه جزم المؤرخ العلامة الشيخ علي جالون اللبوي في تاريخ الخلفاء، وتاريخ الوقائع، وكذلك العلامة الحاج إبراهيم بن العلامة محمد التسليمي (كرن سنكن) في كتاب: البشرى شرح المرقاة الكبرى، وصاحب الكنز الأوفر في سيرة الشيخ محمد سالم الأكبر، وصاحب إنهاض الهمم.

(٣٧) ينظر: علي العوري اللبوي، تاريخ القبائل والعشائر الفوتجلونية، مخطوط.

(٣٨) كما وقع للباحثين الجليلين: محمد باري، وسعيد كريْديّة، المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م)، ٢١٠-٢١١.

(٣٩) علي اللبوي، تاريخ الخلفاء، مخطوط.

والتسليمي، كتاب البشرى في شرح المرقاة الكبرى، ٣٠٢.

(٤٠) (مام كيكل) تركيب محلي فلاني، ومعنى (مام) بالفلانية الجدّ والد الأب، و(كيكل) الشيخ الهرم المتقدم في السنّ، وغالبًا ما ينشأ ذلك في المجتمع الفلاني، إذا عاش المرء مع أحفاده، وينادونه: (مام)، أي: الجدّ، وينادونه به الأقارب والجيران، ويظل به اسمه، ويشتهر به.

(٤١) نسبة إلى عاصمة الخلافة فيما بعدُ، وتكتب هذه الكلمة في المصادر الفوتية – غالبًا – بالتاء (تنب)، وتضبط بكسر التاء وإسكان النون مع ضمّ الباء المالة، تمييزًا بينها وبين مملكة (تِنْبِ) بكسر الباء، وتكتب في بعضها بالميم بدل النون بين التاء والباء هكذا: (تـمب).

(٤٢) مصطلح محلي فلاني يستعمل في موضعين، الأول: الوالي، أو الأمير، أو الملك. والثاني: الفاهم الفقيه العالم، والثاني شرط في الأول، وليس الأول شرطًا للثاني.

(٤٣) تاريخ أصول الفلانيين للعلامة المؤرخ علي بن محمد اللبوي. مخطوط في خزانتي الخاصة. والمجموع النفيس سّرا وعلانية في ذكر بعض السادات البيضانية والفلانية، للعلامة المؤرخ شيخ موسى كمرا. مخطوط من خزانة إيفان – جامعة شيخ أنت جوب رقم (٠٥)، تحت ملف التاريخ، مجموع مصنفات شيخ موسى كمرا. تاريخ الفلانيين

(٤٤) (سنب) يكتب في المصادر التاريخية بعدّة أنواع مختلفة، بالصاد تارة (صمب)، وقد تضبط الصاد بالضم المالة، وقد تفتح، وكذلك الباء، تكتب بالضمة المالة وبالفتح، والنون قد يكتب ميمًا، والمعنى في الفلانية (الابن الأول) ويعكسه (بِلُّ) أو (بيّل) وهو الابن الثاني.

(٤٥) علي اللبوي، تاريخ الخلفاء، مخطوط.

والتسليمي، كتاب البشرى في شرح المرقاة الكبرى.

(٤٦) وهي شجرة (دُنْدُكّ)، وهذا ما ذكر في المخطوطات التاريخية، وكونها (دندك) محل إجماع من علماء فوتا جلو. ذكرت هذه المعلومة في عدة مصادر فوتية.

(٤٧) وحسب نظر الباحث، لم يكن الموقف يتطلب هذا كلّه؛ لوجود نصوص حاسمة في الموضوع، وعلى فرضية الجهاد، ولم يختلفوا في الحكم، وإنما خلاف: متى؟ وأين؟ ومع من؟ وعلى أي؛ فالقرعة جائزة قال الله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾. وقال: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ﴾، فقد احتج بالآيتين في إثبات القرعة. والمسألة فرعية. والله -تعالى- أعلم. وقال الناظم:

تستعمل القرعة عند المبهم== من الحقوق أو لدى التزاحم.

(٤٨) وكان الأعلم بالعلوم السبعة جمعًا، وكان من أصغرهم سنًّا، ومتى ما كان المعيار العلم في التقديم، يكون الظفر بالمنى أقرب.

(٤٩) وكلمة (فوتا جالون) تكتب في المصادر التاريخية بأنماط مختلفة، تكتب كلمة واحدة «فوتجلو» وبدون نون في آخرها، وتكتب بنون في آخرها (فوتجلون)، وتكتب تارة (فوتا جلون)، وأخرى (فوت جالون)، أو بألف مدّ بعد التاء.

(٥٠) وقيل غير ذلك كما تقدم.

(٥١) علي اللبوي، تاريخ الخلفاء، مخطوط، تاريخ الوقائع. مخطوط، الفوتجلوي، والبشري شرح المرقاة الكبرى، ٣٠٢.

وينظر: سمب، «إمبراطورية «فوتا جالون الإسلامية» تاريخ سياسة علم أعلام عادات تقاليد.

(٥٢) وقد تقدّم في المصطلحات السياسية، وهو على غير مقاصد العربية ومصطلحاتهم.

(٥٣) علي اللبوي، تاريخ الخلفاء، (ت ١٣٤٥هـ)، مخطوط في خزانتي. ولنا أمل في كتابة بحث واسع في تاريخ فوتا جالون، وتاريخ خلفائها وولاتها، وأنديتها العلمية مع تراجم علمائها وأدبائها، من فترة تأسيس الإمبراطورية الإسلامية، إلى وقتنا الحاضر.

(٥٤) ينظر: اللبوي، تاريخ الوقائع مخطوط، قال - فيه - : ((... وعام أيسش [رمز: ١٣١١هـ] غزى ألفا يحيى غزوة (وُبَاجِ woubaji)، وهي أخيرة غزواتنا، ولم يغز أحد بعد ذلك؛ لدخول ملك النصارى على (فوتجلو)، وقتلهم للإمام بوبكر في حربِهم بـ: (بورداك Porédaka)، وانْهزم الإمام بوبكر [أبوبكر]، واتبعوه حتى أخذوه في «لِيْ ماج Leymaje» بِموضع يقال له: (بوتور Botore)، وقتلوه، وقطعوا رأسه، وذلك عام دخول النصارى، أول من أتى منهم (كمادن بقمان Comandant big man)، و(كبتل عمار Capiten amar)، إلى أن قال: ((وذاك العام يسمى: «قيد شر»))، رمز للتاريخ بالجمل، وهو ألف وثلاث مائة وأربعة عشر ١٣١٤هـ الْموافق: ١٨٩٧م. وقد صنّف في سقوطها ورثائها أسفارًا عديدة.

(٥٥) وفي بعض النسخ الخطية يلقب بعماد الدين.

(٥٦) وينعت تارة: «التقي العارف بالله الزاهد...».

(٥٧) والسيلوي أو السيلي أو السيلاني، نسبة إلى واحد من تلك البطون، معروفة لدى الأوساط الفلانيين هنالك، وجَلُّو لقب لاثني عشر بطنًا، والفوتجلي: نسبة إلى دولة الأئمة الإسلامية الفوتجلوية، و(لابي): اسم ديوان وإقليم تابع يومئذ، وكانت عاصمة علمية، والدلني: نسبة لباديته التي ولد منها وبها توفي - رحمه الله - كما تقدم.

(٥٨) (الجلجلي) فيه نحت، والنحت لغة: النشر والقطع والقشر وهو نوع من الاختصار في اللفظ، ويراعى في ترتيب الحروف ترتيب ورودها في الجملة المختصرة. وهذه منحوتة من كلمتين؛ «جلّ، وجلو» ويعني ذلك أن لقبه «جلّ»، ومكانه «فوت جلو»، والنسب في اللقب: الجلاوي، وفي المكان: «الفوتجلوي».

(٥٩) حرد متن «مختصر الميداني»، الناسخ حفيده وسميه: بكر بن الفقيه صالح المتوفى سنة (١٢٧٢هـ).

(٦٠) حرد متن الدعوات بالأسماء الحسنى ومعانيها، الناسخ ابنه صالح...

(٦١) حرد كتاب شعب الإيمان للإمام البيهقي، الناسخ ابن عمه محمد جدّ بن مود طلحة بن شيخنا عثمان تان، والمنسوخ له حفيد المترجم له، ووافق الختم خمسة وعشرين ذي الحجة، بعد اثنين وتسعين ومائة وألف للهجرة.

(٦٢) مخطوط في خزانة «مركز المخطوطات والدراسات الإفريقية». وناسخه: الشيخ محمد سري بن العلامة سعد بن إبراهيم السيلي الدلني.

(٦٣) وسيلة الأمان للعلامة بدر الدين بكر بن الهمام عثمان بن الفقيه الزاهد عبد الله الفلاني السيلي، يتحدث فيه عن الدراري وسقوطها والوبال. ناسخه حفيده بكر بن صالح بن بكر الفلاني. بدون تاريخ للتأليف والنسخ. مخطوط في خزانتي الخاصة. وفي المركز أيضًا.

(٦٤) ينظر ترجمته كاملًا في: «الطريف الظريف في شرح فاتحة التصريف للعلامة سعد بن إبراهيم الدلني»، وشكر الإله في علم الفرائض أيضًا له، وكلاهما من أعمال الباحث.

نظام الحجر الصحي في الرحلة الحجية المغربية

د. كوثر أبو العيد، أستاذة باحثة بجامعة سيدي محمد بن عبد الله، متخصصة في التاريخ الحديث والمعاصر، فاس.

شكَّل القرن التاسع عشر نقطة تحوّل جذري في خطِّ الرحلات، ذهابًا وإيابًا؛ فقد تحوَّل الطريق الذي كانت تسلكه الرحلات الحجيَّة من الطريق البري إلى الطريق البحري، الذي عرف سيطرة مطلقة من قبل الآخَر، تمهيدًا للزّحف على أرض الإسلام المحاصرة برًّا.[١] وهكذا، فإن تحوّل طريق الحج بحرًا، بصفة رسمية، ابتداءً من سنة ١٨٥٤م،[٢] لم يسلم معه الحُجَّاج من المصاعب والأخطار، التي كانوا يتعرَّضون لها، وإن كان هذا المسلك البحري قد وفَّر لهم الجهد والوقت والمال، وأراحهم من صعوبة المسالك الملغومة بقُطَّاع الطرق. ومع ذلك، فإنَّه كلَّف الحجاج ضريبة باهظة، كان لا بد من أدائها، ولم يكن منها مفر، إلى درجة أن غدت فيها رحلة الحج توصف بـ«رحلة الإيمان والمتاعب»، على حد تعبير الأستاذ محمد أمين البزاز. بل إن الرحلة أحيانًا كانت تكلّف الحاج حياته،[٣] إضافة إلى سوء المعاملة، الأمر الذي أدَّى بالفقهاء إلى إصدار فتاوى، تسقط فريضة الحج عن المسلمين، إذا اقتضى الأمر ذلك، باعتبار أن الحاج المسافر على متن سفينة مسيحية يظل خاضعًا لأحكام غير إسلامية[٤] من جهة، وباعتبار أن البحر الأبيض المتوسط لم يعد بحيرة إسلامية، وأن دار الإسلام زحف عليها بحر جديد، هو بحر «دار الكفر»، بعتاده وإغراءاته من جهة ثانية.

ودار الإسلام زحف عليها بحر جديد:هكذا، نجد علماء المغرب يفتون بمنع الحج سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٧م، بعدما تبيَّن لهم الأذى الذي يلحق بالحجاج، على ظهر السفن «المسيحية»،[٥] ومن بين هؤلاء محمد الكتاني، الذي سوَّغ مسألة منع الحج المؤقت بحجة «الركوب في مراكب أعداء الدين والكفرة المعتدين، حيث يعلم أنه تجري أحكامهم بالإهانة عليه، وأنهم يتوصلون بشيء من الأذى بالفعل إليه».[٦] والموقف نفسه اتَّخذه عالم الأزهر، إمام المالكية بمصر، محمد بن عبدالله بن عليش، الذي أفتى بمنع الحج على ظهر السفن، لما يحصل من المزاحمة والمضايقة،[٧] وذلك سنة ١٢٧١هـ/١٨٩٨م. كل هذا يفيد أن معاناة الحجاج أصبحت مرتبطة بظروف طريق البحر، ولعل أبرز هذه المعاناة هو ما ارتبط بالحجر الصحي، وهو أمر أصبح يمثّل وصمة

عار في جبين الحاج، «يذوب الفؤاد من هولها»،[٨] خاصة إذا أخذنا بعين الاهتمام أن الحجاج كانوا يحظون بالاحترام والتقدير في المجتمع المغربي؛ فلقب الحاج له دلالته ورمزيته في الذهنية المغربية، ولذا، فإن ما كان يخضع له الحجاج في الكرنتينة كان أمرًا مستهجنًا، بغضّ النظر عن حسن ظروف الحجر الصحي، أو سوئها. كما وصف الرحالة المغاربة بعض مظاهر التقدم في البلاد الأوروبية التي زاروها؛ فقد وصفوا أيضًا الحجر الصحي، وعرفوا به بلدهم، قبل أن يطبق نظامه على يد المجلس الصحي الدولي بالمغرب سنة ١٧٩٢م.[٩] وهو أمر عُدَّ من المستجدات، والمستحدثات الأوروبية، لحل مشكل اجتماعي وصحي خطير بالمغرب، ألا وهو مشكل الوباء، الذي أرَّق مضجع الفكر المغربي.[١٠]

وتبعًا لذلك، فقد خلَّف نظام الحجر الصحي، أو ما أطلق عليه: الكرنتينة،[١١] أدبيات حول هذا الموضوع. لكن الآراء والانطباعات حول مشروعية الكرنتينة، وإن اختلفت، إلا أنَّها كانت متطابقة في وصف ظروفها، وما كان يجري بداخلها، ولنثبت ذلك، فقد عمدنا إلى إيراد عدة شهادات، استقيناها من مجموعة من الرحلات، التي خضع أصحابها للحجر الصحي، معززين ذلك بشهادة الحاج بو شعرة، الذي يمثّل المادة المصدرية الأساسية والمعتمدة، في تطرّقنا لهذا الموضوع، كما لا يفوتنا أن نشير إلى ردود فعل أصحاب هذه الشهادات تجاه الكرنتينة، والتي عكست في حقيقة الأمر موقف هؤلاء من المستجدات الأوروبية، الأمر الذي خلّف أدبيات حول نظام الحجر الصحي، كشف لنا عن طبيعة الذهنية المغربية، في هذه الفترة التاريخية.

بقي أن نشير كذلك إلى أن الرحلات التي استقينا منها نماذجنا ميَّزت بين محجرَين أساسَين، كان يخضع لهما الحجاج، ويتعلق الأمر بمحجر الطور، ومحجر بيروت. وتبعًا لذلك، سنتطرّق إلى حيثيّات كلّ محجر على حدة، وذلك من خلال شهادات حيّة لأولئك الرحالة، الذين خضعوا وعاينوا المحجرَين معًا.

١ ـ محجر الطور[١٢]

الحجر الصحي الذي كان يتعرض له الحجاج المتوجهون إلى مكة، عبر بلاد الشام، أو العائدون منها، كان يجري بمصر، بالقرب من جبل الطور، وبتحول طريق الحج البري عبر سيناء، إلى الطريق البحري الموصل إلى جـدة، فـي عهد محمد توفيق باشا (١٨٧٩-١٨٩٢م). وقد وسِّع محجر الطور، ومُدّ خط تلغرافي إليه من السويس عام ١٩٠٠م، وكان في هذا الطريق راحة كبيرة للحجاج.

لكن ظروف المحجر الصحي به كانت عكس ذلك تمامًا، وهو أمر تؤكده جل الرحلات التي خضعت لنظام الكرنتينة في هذا المحجر، هكذا يشير الحاج بو شعرة في رحلته إلى الظروف المزرية، التي كان يعانيها الحجاج في محجر الطور، واصفًا ما كان يجري هناك، بقوله: «عند صباح يوم الجمعة منه، وصلنا للطور [...] ثم صعد إلينا الطبيب المكلف بالمحجر الصحي، وأذن أولًا بنزول المرضى، الذين كانوا بمستشفى

البابور، ثم ثانيًا الحجاج، وكنا إذ ذاك أربع عشرة مائة، فنزلنا مصحوبين بجميع حوائجنا، وبقيت الباخرة فارغة من أمتعة الحجاج. وقد وجهت إلينا مراقبة الصحة أعوانها بمواد الرش والتبخير، وذهبنا نحن إلى المكلف بفحص الحوائج والأمتعة، ودفعنا للتبخير، ثم إلى المكلفين بأخذ ملبوسنا، ودفعه للتبخير كذلك، ودخلنا المغتسل بالمآزر فقط، وبعد الفراغ منه، ناولوا كل واحد منا قميصًا يستر به بدنه، ريثما تخرج حوائج الملبوس من آلة التبخير، وبعد ردها إلينا، ذهبوا بنا إلى المحجر الصحي على هيئة المحبوسين».[١٣]

يتبيّن إذن من شهادة الحاج بو شعرة طبيعة المعاناة التي كان يكابدها الحجاج في هذا المحجر، وهي معاناة على مستويات عدة، نذكر منها: ظروف المحجر، من حيث الصحة والنظافة والغذاء، فضلًا عن سوء معاملة الحجاج من قبل موظفي المحجر، كل ذلك أشارت إليه بوضوح رحلات عديدة، معاصرة لرحلة الحاج بو شعرة، نذكر منها على سبيل المثال: رحلة محمد بن جعفر الكتاني، الذي أشار إلى وضعية الحجاج داخل الطور قائلًا: «وأما الحبس، فرأيناه في الطور، في مكان كثير الذباب، خبيث الرائحة بالمياضي المجاورة له، وهذا مع الغم الحاصل بالحبس، ربما كان ضررًا، وأي نفع هو فيه، ولكن يمرح بعقول الناس عند الساعة، حتى لا يبقى لأحد منهم عقل، إلا من أخذ الله بيده».[١٤]

هكذا يبيّن لنا الحاج الكتاني الوضعية غير الصحية لمحجر الطور، الذي كان يخضع له الحجاج، وما يرافقها من غمّ وسوء معاملة، وهي مسألة تطرّق إليها الحاج بو شعرة في رحلته أكثر من مرة، وبغبن شديد، كقوله: «... وقد شددوا على الحجاج، وسلكوا بهم نهجًا لا يليق بمنصبهم، وعاملوهم بأنواع الإساءة، وخبث السيرة، شدد الله عليهم».[١٥]

هذه المعاملة السيئة، كثيرًا ما كانت تترك آثارًا عميقة، نفسية وجسدية، على الحجاج، الذين كان بعضهم يفارق الحياة، كما حدث لنجل مرافق الحاج بو شعرة، السيد بن الحاج علال بن الميلود السلوي،[١٦] خاصة إذا ما علمنا ظروف نقل الحجاج، الذين كانوا يتكدسون في ازدحام على متن السفن، ممَّا كان يخلف متاعب حقيقية، وأزمات صحية، تؤدي أحيانًا إلى وفاة البعض منهم.[١٧]

أمَّا صاحب الرحلة الطنجوية، فيكشف لنا ما كان يجري داخل محجر الطور، بتفصيل دقيق، مشيرًا إلى مختلف المصاعب التي كان يواجهها الحجاج هناك، وذلك بقوله: «وما نزلنا البر إلا بعد مشقة عظيمة، ثم إن من دفع نصف (إبرة)[١٨] مع كسر، قدموا لموضع التبخير، ومن عجز عن دفع القدر المذكور لفقره، منع من الدخول له، فيظل نهاره تحت الشمس المحرقة، ومن فقراء الحجاز من بقي ثلاثة أيام على هذه الحالة السيئة، حتى انتهى التبخير لسائر الحجاج، الذين أدوا القدر المشار إليه».[١٩]

يتبيّن لنا - إذن - مدى الابتزاز الذي كان يتعرض له الحجاج، إضافة إلى الظروف القاسية التي كانوا يعيشونها في المحجر، الذي كانت تنعدم فيه أيسر وسائل الراحة، ويستأنف الغسال حديثه عن مآسي

الحجاج بالطور قائلًا: «... وبعد تمام هذه المعاملة الفظيعة، أشار الطبيب باصطفاف الحجاج على نحو النظام العسكري، ليختبر صحتهم واحدًا بعد واحد، ثم يرشه بماء كريه الرائحة، وعند انتهاء التبخير، أمر بإخراج الحجاج من غير الطريق التي سلكوها أولًا، وهنالك يجد كل واحد منهم ملبوسه ملقى على الأرض مبخرة، فمنها ما هو محروق، ومنها ما يقطر، ومنها ما تصعد منه روائح كريهة، ولا تسمع حينئذ إلا صياح الحجاج، فهذا يبكي على حوائجه التي أحرقت له بما فيها، وهذه تلطم خديها على ضياع حليها، ثم أخرج الجميع إلى محجر الصحة، محاطين بالعساكر النظامية. وكل الطريق رمال بعيدة المسافة، قطعها الحجاج راجلين؛ سواء كانوا رجالًا ضعافًا، أو نساء، أو أطفالًا، في شدة الشمس الرمداء، ولا شفقة ولا رحمة، فقد نزعها الله من قلوبهم. وموقع المحجر الصحي في وسط الرمل، منصوبة فيه عدة خزائن الكريا[٢٠] المتلاشية، محاطًا عليها بشباك من السلك كالقفص. وما رأيت أشد من الرياح الشرقية هناك، زيادة على شدة الحر المشؤوم، وأمَّا ضروريات المأكولات والمشروبات، التي تباع هناك بثمن غال، فتعافها النفوس لولا الضرورة، وفي كل يوم يكشف الطبيب عن صحة الحجاج، ويقلبهم واحدًا بعد واحد، ومتى عثر على حاج منحرف المزاج انحرافًا ما، إلا ويأخذه، أحب أم كره، ويذهب به إلى المستشفى، ويحول بينه وبين أهله ورفقائه».[٢١]

يستمر الغسال في وصف متاعب الكرنتينة بحزن عميق، وحسرة شديدة، إلى أن يقول: «وبالجملة، فلا تسأل عن معاملتهم إياهم؛ إذ يقصر القلم عن وصفها، ويذوب الفؤاد من هولها، وحين قرب انتهاء أمد الكرنتينة بيومين، رخص الطبيب للحجاج الحضور على تبخير ما في صناديقهم الموضوعة من البابور، فلا ترى جلها أو كلها إلا مكسرة، والحوائج التي في وسطها ممزقة، تلعب بها النار، ويغطيها الغبار، وترش بالماء الكريه الرائحة، ولما رأيت هذا الفساد الفادح، لم يسعني إذ ذاك، إلا أن بدلت دريهمات من طرف خفي لبعض الملاحظين، الذين يكشفون عن الصناديق، ارتكابًا لأخف الضررين، كي يغضوا الطرف عنها، وبسبب ذلك، سلمت حوائجي كلها من الآفات، والحمد لله. هذا بعض ما يقاسيه حجاج بيت الله الحرام في محجر الطور، وقد ذكرته على سبيل الجملة، وإلا فلا يسعه مسطور، وإلى الله ترجع الأمور، وكانت مدة إقامتنا على هذه الحالة التي تنفطر لها القلوب عشرين يومًا، ما بين البحر والبر، غفر الله للجميع بها الذنوب».[٢٢]

من خلال هذا الوصف الدقيق، لما كان يجري بمحجر الطور، يتّضح لنا حجم المعاناة، التي باتت نصيب كل من قادته ظروفه نحو هذا المحجر، فضلًا عن متاعب أخرى ترهق الحجاج، كالدخول والخروج من السفينة في الزحام، علاوة على تأدية المال على أمتعتهم للحمالين، حتى لا تتعرَّض للضياع والسرقة، أو تُصادر.[٢٣]

ويؤكد صاحب الرحلات الحجازية في حجته الثانية (سنة ١٩٠٣م) سوء المعاملة التي كان يتعرّض لها الحجاج في الحجر الصحي بالطور، مع رداءة المكان وقلة الطعام،[٢٤] كما يخبرنا في حجته الأخيرة (لسنة ١٩٠٥م) أن موظفي الحجر الصحي بالطور كانوا يتعاملون مع المحجوزين بنوع من التمييز؛ أي أن علية

الناس كانت أحيانًا لا تخضع لهذا الحجر، في حين كانت العامة مجبرة على الامتثال لأحكامه، مصرحًا أنّه كان من ضمن أولئك الذين أعفوا من الحجر.[٢٥]

ويدعم ناصر الدين الفونسو في رحلته الحجية مسألة التمييز هذه، ولكن هذه المرة لصالح غير المسلمين، سواء أكانوا من خاصة القوم أم عامتهم.[٢٦]

وإذا قارنّا شهادة أصحاب هذه الرحلات الحجية، مع شهادات بعض المستكشفين الأوروبيين، الذين خضعوا بدورهم للحجر الصحي بالطور، فإننا نجدها مطابقة تمامًا؛ فهكذا يحدثنا «دولتشين في رحلته، عن تفاصيل عديدة لظروف الحجر الصحي بالطور، وقد أسهب في وصفه الدقيق لهذا المحجر، مسوِّغًا أسباب مقت الحجاج له، قائلًا: «هذا هو المحجر الصحي في الطور، الذي يكرهه الحجاج بالغ الكره، الساحل واطئ، الرمل يشكل، بعيدًا عن البحر، جملة من كثبان مستطيلة في الأفق، ترتفع كتل حجرية معدومة الحياة من الجبال، المنظر أشد كآبة ممّا في الحجاز(...). اقتربت باخرتنا من الشاطئ، ورمت المرساة (...)، بعد ساعة انطلق من الساحل زورق بخاري صغير، ونقل إلينا طبيبين اختصاصين في الحجر الصحي، وهذان تفحصا أوراق الباخرة، ثم عادا بعد فترة وجيزة إلى الساحل (...)، وسرعان ما عاد الزورق قاطرًا ثلاثة زوارق كبيرة، وفي الحال، بدأ إنزال الركاب، ونقل كل أمتعتهم إلى الساحل، الأمر الذي استغرق يومين، لأنه لا يتسنى في اليوم الواحد تعقيم أكثر من ٣٠٠-٤٠٠ شخص، وكل الأمتعة الثقيلة الموضوعة في العنبر، أنزلوها هي أيضًا من الباخرة، وكثيرون من الركاب، أبقوا حقائبهم اليدوية، وغير ذلك من أشياء أوفر قيمة، لأجل الحفظ عند المسؤول عن مطعم الباخرة، وهذا الأخير أخفاها في مكان ما، لقاء مكافأة».[٢٧] يستمر دولتشين في وصفه للحجر الصحي وحيثياته، موضحًا هذه التفاصيل على النحو الآتي: «ترسو الزوارق عند الرصيف، وعلى طوله، مدوا القضبان الفولاذية، لأجل سكة حديدية من طراز خفيف جدًّا. وقبيل رسو الزوارق، تصل عربتان حديديتان صغيرتان، واحدة بصورة عربة مستشفى، وعليها ينقلون المرضى إلى مستشفى الحجر الصحي، والأخرى من طراز عربة الشحن، لأجل نقل الأمتعة إلى مبنى التعقيم، وعلى أبعاد قصيرة، يجر الناس العربتين، وعلى مسافات أبعد يقرنون البغال، وهناك أيضًا قاطرة صغيرة».[٢٨]

يستأنف هذا الرحالة حديثه عن محجر الطور، موضحًا هذه المرة معاناة الحجاج بتفاصيل دقيقة، بدءًا من نزولهم من السفينة، وخضوعهم للحجر، إلى ما بعد ذلك، هكذا يتابع وصفه قائلًا: «على بعد مسافة قصيرة من الرصيف، توجد تخشيبتان مسقوفتان طويلتان، لأجل غرف التعقيم، وقربها سقيفة ينتظر الحجاج تحتها دورهم، ولتغطية نفقات الحجر الصحي، يأخذون من كل حاج ٦٤ قرشًا مصريًّا (زهاء ٦ رويلات)، أمَّا المعدمون، فيسمحون لهم بدخول المحجر الصحي مجانًا، ولكن بعد الانتهاء من تعقيم الحجاج، الذين دفعوا الرسوم».[٢٩]

إن هذا الحديث يعزّز ما سبق أن أشرنا إليه، عند إيراد شهادة الحاج الغسال، التي تفيد عدم توفر الشروط الإنسانية للمحجورين؛ إذ يعاملون تبعًا لإمكاناتهم المادية،[٣٠] كما تبيّن لنا كذلك، أن تكاليف الحجر الصحي كان يتحملها المحجورون أنفسهم.[٣١]

نعود لرحلة دولتشين، الذي لم يسلم بدوره من متاعب الطور، وهو ما توضّحه رحلته قائلًا: «انتظرت دوري، ودخلت إحدى التخشيبتين المذكورتين، وإذا بي أرى نفسي في غرفة رحبة كفاية، أرضيتها رطبة، ومفروشة بالأسفلت، على هذه الغرفة تطل أبواب ثلاث مقصورات بخارية للتعقيم، وهنا أيضًا تنتصب الخوابي والبراميل المليئة بشتى السوائل المعقمة، وأخذوا يفكون صرر الأمتعة ويصنفونها، وكل أمتعتي المؤلفة من كيس للسفر، فيه البياض ولوازم الفراش، ومن سرير للسفر، ومن صندوق فيه الآنية والمؤونة، نقلوها إلى الحوش، أمّا أمتعة خادمي، فقد أدخلوها كلها في مقصورة، ثم طلبوا منا أن نتعرى تمامًا، ونلبس بياض الحجر الصحي، البعض لبسوا «الكلاسين»، والبعض الآخر القمصان الطويلة، ونحن ركاب الدرجة الأولى الثلاثة، حاولنا أن نحتج لعدم رغبتنا في ارتداء ألبسة قذرة، الله يعلم ممن نزعوها، وطلبنا إعطاءنا ألبسة أنظف على الأقل، ولكن طلبنا قوبل بالرفض القاطع، فتعين علينا أن نتعرى، ونربط كل ألبستنا، ونرتدي قمصانًا كريهة، نتنة، ولم يسمحوا لنا إلا أن تبقى معنا محافظ الطريق، التي تحتوي النقود والوثائق والمظلات والأحذية، وحين بلغ عدد مرتدي هذا اللباس زهاء ١٠ أشخاص، جاء الطبيب وفحصنا، متلمسًا الغدد اللوزانية، وتحت الإبطين، وفي المغبن، وأثناء فحص الطبيب خلعوا حذائي، وبللوه ببالغ الاجتهاد(...). وقد اضطررت إلى انتظار ألبستي زمنًا طويلًا نسبيًّا، ورؤية مشاهد طريفة جدًّا، ها هم يرمون من قسم التعقيم، عبر باب واسع، الصرر والرزم المطهرة من كل مسبب للأمراض، هذه الصرر والرزم، يتلقاها في الحال أصحابها الذين ينتظرونها، ويفكونها، ويبدأون تفحصها. جميع الطرابيش تحولت إلى أشياء كريهة المنظر، وتغيرت ألوان الأشياء الأخرى، أو اصبغت بأصباغ غريبة، بعض الأصباغ في السجادات بهت لونها هي أيضًا. عند البعض، تبين أن غلافات الأشياء الجلدية، لم يضعها جانبًا، بسبب جهله للأمر، أصبحت مجرد مزق مدعوكة، ومن هم أوفر طيبة ولطفًا، يضحكون، ولكن تتعالى على الأغلب التذمرات واللعنات».[٣٢]

هكذا يوضح لنا الضابط الروسي، وبدقة كبيرة، ما كان يجري داخل المحجر، والإرهاق الكبير الذي كان يخيم على الحجاج، تاركًا آثارًا واضحة على بنيتهم الجسدية، وهو ما أثار انتباه الضابط دولتشين، الذي صرح قائلًا: «ذهلت للشعب النحيل، والمنهوك القوى؛ هذه الرحلة إلى الحجاز، ترهقهم جميعًا، وما إن يتلقوا أمتعتهم، حتى يرتدوا ثيابهم، بينما يرمون بياض المحجر الصحي بحنق، على الأرضية القذرة والرطبة، ومن هذه الأرضية، يأخذ الخدم هذا البياض، وينقله لأجل استعماله لاحقًا. ارتديت ثيابي من جديد، وخرجت إلى الحوش، ووجدت عند الباب كل أمتعتي، بدون أي أثر لأي تعقيم، ثم شرعوا ينقلون

الأمتعة إلى ما وراء البوابة، لكي ينقلوها إلى المخيم، حيث يفرضون الحجر الصحي على الحجاج».[٣٣]
بعد هذه الشهادات المطولة التي أوردناها، للوقوف على مآسي الحجاج بالطور، ننتقل إلى جانب آخر من هذه المآسي، وهنا يتعلق الأمر بالجانب الغذائي، الذي سبق أن تطرقنا إليه من خلال الرحلة الطنجوية.[٣٤]
في هذا الإطار، نورد شهادة دولتشين، الذي صرح بأن الغلاء هنا رهيب، ويشمل جميع المأكولات الضرورية، وغالبًا ما يستحيل كليًّا شراؤها، مثل سعر رطل لحم الضأن ٣٠ قرشًا، رغيف الخبز من الطحين الأسود وزنه نصف رطل، وهو دائمًا قاس وعتيق، سعره ٨ قروش، سعر الدجاجة ٨ قروش سعر البيضة ٣ قروش(...). منذ الأيام الأولى بالتحديد، تبيّن أنّ عددًا كبيرًا جدًّا من الحجاج يعانون الإسهال، أضعفهم أرسلوهم قسرًا إلى المستشفى، الذي يخافه الحجاج، خوفهم من النار، وقد حاول بعض ممّن مرضهم أقل وطأة، أن يطلبوا النصيحة والدواء من الطبيب، ولكن تبيّن لما فيه دهشة الجميع، أنه لا يجوز هنا إعطاء النصائح والأدوية، فإذا كنت مريضًا فعليك أن تتعالج في المستشفى».[٣٥]
ويعلل دولتشين أجواء الكآبة في صفوف الحجاج، بسوء أحوال التغذية، فضلًا عن سوء الأحوال النفسية، خاصة مع امتداد فترة الحجر الصحي، وهو ما عبّر عنه بقوله: «دام الحجر الصحي في الطور ١٢ يومًا، وطوال هذه المدة، سادت بين الحجاج كآبة عميقة عامة، وهبوط شديد في المعنويات، الأمر الذي يمكن تفسيره بإدراك الحرمان من الحرية، وبالتخوف من إمكان استطالة هذا الاعتقال زمنًا طويلًا، غير محدد، فيما إذا ظهر مرض ما، مشكوك فيه، أغلب الظن أن التغذية الرديئة جدًّا، كان لها هي أيضًا دورها؛ لأن النقود كانت تنتهي عند الكثيرين من الحجاج، فكانوا يعيشون ببيع أمتعتهم، ناهيك بأنه لم يكن ثمة شيء يمكن شراؤه بهذه النقود، عدا لحم الضأن السيئ النوعية، أو أحيانًا دجاجة هزيلة، كذلك لعبت الرياح الشمالية المتواصلة دورها، في كآبة المكان؛ تهب هنا بقوة كبيرة جدًّا، قالبة الخيام».[٣٦]
إن هذه الإشارات الأخيرة لجغرافية الطور، والتي كثيرًا ما كانت من الأسباب المنفرة للحجاج من هذا المحجر، نجدها من الأسباب التي عَدَّها محمد بن جعفر الكتاني تجعل الكرنتينة غير جائزة شرعًا، سيما وأن المحجور يكون «عاري الجسد من الثياب المدفئة، بل بثوب واحد (...) وجعلهم الطوق لا زر له، وجسده سخن، والأرياح الباردة تنفخ فيه، فإنه ربما كان سبب العطب».[٣٧] بل الأكثر من ذلك، كان سبب وفاة العديد من الحجاج، فضلًا عن الأسباب الأخرى التي عاشوها داخل المحجر، والتي لخصها دولتشين بعبارة: «في الحرمان والضنك الأقصى».[٣٨]
ولعل متاعب الكرنتينة هذه، هي التي جعلت ثلّة من العلماء والفقهاء ترى عدم جوازها، مستندة إلى حجج شرعية، تحرم الحجر الصحي، نذكر من ذلك مثلًا، ما أورده محمد بن جعفر الكتاني بقوله: «والذي يظهر في هذه الكرنتينة، أنها لا تجوز لوجوه، أحدها: أن بعض من يتولاها ليس من المسلمين، بل من اليهود أو

النصارى، وفي ذلك إعلاء لأهل الأديان الباطلة، على أهل الإسلام، ومعلوم ما فيه. الثاني: ما فيها من إذاية المسلمين؛ بل وفد الله، ووفد رسوله صلى الله عليه وسلم، الحجاج، وإهانتهم بالانتهار لبعضهم، والتعبيس في وجهه، بل واللعن والسبب والشتم، ونحو ذلك، ونزع ثيابهم منهم، وتركهم في محل ينتظرون خروجها، وغير ذلك. الثالث: ما فيها من حبسهم عن مصالحهم وتصرفاتهم، مدة من الدهر؛ وذلك من الظلم، وأيضًا ما فيها من أخذ أموالهم بغير حق شرعي، وما يزعمون من المصلحة في ذلك باطل، لم تظهر لنا في ذلك الفعل مصلحة أصلًا، وإنما ظهرت فيه المفسدة، أمرهم فيها منحصر في أمور، وهي: الغسل للجسد، والتبخير للثياب، والرش لبعض الأمتعة بماء عندهم، والحبس في مكان منحصر، في مدة يعينونها.[٣٩]

لم يكتف الكتاني بإيراد هذه الدلائل، بل عمد إلى التفصيل فيها، ودائمًا من منظوره كفقيه، قائلًا: «وأما التبخير للثياب، فليس فيه إلا إفسادها بالنار، وإزالة رونقها وبهجتها، ولا فائدة منه، فإن قيل: فيه قتل ما فيها من الحشرات، وفي ذلك مصلحة، قلنا: قد ورد الشرع بالنهي عن قتل الحيوانات بالنار».[٤٠]

وإذا كان الكتاني لا يرى أي مصلحة في الحجر الصحي، فهناك من الفقهاء، كالناصري، من يرى فيها الأمرين معًا؛ أي: المصلحة والمفسدة، وبما أن القاعدة الفقهية تنص على أن «درء المفسدة، مقدم على جلب المصلحة»،[٤١] فقد استخلص الناصري أن الكرنتينة اشتملت على مفاسد «كل منها محقق؛ فتعين القول بحرمتها، وجلب النصوص الشاهدة لذلك من الشريعة، لا تعوز البصير...».[٤٢]

وإذا كانت النصوص الشرعية قاعدة، اعتمد عليها أولئك الذين أصدروا حكمهم بعدم جواز الحجر الصحي، فإنها كانت أيضًا حجة، استند إليها المفكر الجزائري حمدان خواجة، في مشروعية الحجر الصحي، وإباحته، مستغربًا من المبالغة الكبيرة، والحملة العارمة، التي قادها الفقهاء ضد الكرنتينة.[٤٣] وهنا يتبادر لذهننا السؤال التالي: هل كان سيدوم استغراب هذا المفكر، من موقف أولئك الفقهاء، لو كان خضع بدوره لمحجر الطور، وعاين عن قرب ما عاينه الحجاج؟ نشكّ في ذلك؛ فإذا أخذنا بعين الاهتمام الشهادات السابقة، التي خضع أصحابها للحجر الصحي بالطور، أدركنا معاناة هؤلاء، واستطعنا أن نفهم مقتهم لهذا النظام الصحي، الذي فرضه الآخَر(الغرب المتقدم).

إن ظروف الحجر الصحي في هذه المرحلة التاريخية خصوصًا، التي عرفت تكالب القوى الاستعمارية الغربية على العالم الإسلامي، تبين لنا حقيقة مدى صعوبة شد الرحلة صوب الحجاز؛ فالرحلة الحجية في هذه الظروف، يمكن وصفها مغامرة حقيقية بكل المقاييس، بدءًا بالشروط المالية والصحية، مرورًا بأهوال البحر، والتكدس بالسفن، انتهاء بمتاعب الكرنتينة، لهذا يمكن عَدُّ أصحاب تلك الرحلات الحجية مغامرين مغمورين، أبوا إلا أن يتحدّوا في هذه الظروف، جميع العراقيل، بما فيها تلك التي كانت تمارس عليهم من قبل القوى الاستعمارية، المتحكمة في كل النقط، التي كان يخضع فيها الحجاج للحجر الصحي.

ولعلّ هذه الضغوطات المختلفة، وما كان يلاقيه الحجاج داخل الكرنتينة، خاصة في محجر الطور، هو الذي جعل نظام الحجر الصحي يلقى انتقادًا واسعًا، حتى في صفوف بعض المفكرين، الذين أثّروا تأثيرًا كبيرًا في حركة اليقظة والإصلاح، في مطلع القرن العشرين، على الرغم من نظرتهم الحداثية، أمثال شكيب أرسلان، الذي عدَّ أن الدول الاستعمارية استغلَّت نظام الحجر الصحي، «لتشدد عمدًا على من يريد الحج، المستطيع وغير المستطيع، وذلك قطعًا لصلة المسلمين بمكة، وعزلهم عن إخوانهم في الدين، وإذا سمحت أحيانًا بالحج، فيكون على كره منها، وتعتاض من ذلك بإكراه الحجاج على ركوب بواخرها، وتفرض عليهم أجرة فاحشة، وتحشرهم فيها حشرًا يزيد قهرهم، وفي السنة الفائتة، لم تزل فرنسا تتنوع في الشروط، وتتعنت على الحجاج، حتى لم يقدر على الحج إلا ٣٠ شخصًا من كل جزائر الغرب، مع أن الذين كانوا ذوو الحج، هم أكثر من ألف وتسعمائة».[٤٤]

٢ ـ المحجر الصحي في بيروت

وإذا كانت العديد من الرحلات صوَّرت محجر الطور أبشع صورة، فإن محجر بيروت اختلفت صورته تمامًا عن الأولى، حسب شهادة هذه الرحلات نفسها، بحيث وصفت المحجر وكأنه مكان للاستجمام والراحة، هكذا يتحدّث الحاج بو شعرة عن محجر بيروت قائلًا: «... في صباح يوم السبت، ثاني الشهر، نزلنا إلى المحجر الصحي الفرنسي بخير وعافية، وبعد إجراء عملية التبخير والغسل بالمغتسل الصحي، كما تقدم لنا بالطور، ذهبنا للمحل المعد لنزول الحجاج، وقضينا به ثلاثة أيام، نلنا فيها بفضل الله ومزيد عنايته، غاية المسرات والأفراح، وتمام الأنس والانشراح، وذلك لما حازه الموقع من الرونق والبهاء، وعذوبة الماء، وطيب الهواء، ومن مساعدة المكلفين بتسيير شؤون الحجاج، الباسطين لهم يد المساعدة فيما يريدونه منهم».[٤٥]

إن شهادة بو شعرة هذه توضّح الفرق الشاسع بين ما عاينه الحجاج بمحجر الطور، وما وجدوه بمحجر بيروت. ولعل شهادة صاحب الرحلة الطنجوية تعزز ذلك بقوله: «وصلنا مرسى بيروت عشية يوم السبت، وبات البابور راسيًا بها، وفي صبيحة يوم الأحد، نزلنا بمحجر الصحة، وكانت مدة إقامتنا به تحت ملاحظة قانونه خمسة أيام، في أرغد عيش، كأننا في نزهة والحمد لله، شتان ما بين محجرها ومحجر الطور، فرق كبير بينهما من وجوه، وفي عشية يوم الخميس، انتهى أمد الكرنتينة، تخلصنا منها سالمين لله، والحمد لله المنة».[٤٦]

أمَّا «دولتشين» فقد تحدَّث مطوّلًا عن مزايا الحجر الصحي ببيروت، فجاء وصفه له كالتالي: «يقع المحجر الصحي في بيروت في محلة جميلة، بين البساتين، على ساحل البحر بالذات، على بعد زهاء كيلومترين إلى الشمال من المدينة. وعن حق وصواب، يعتبر الحجاج إقامتهم في هذا المحجر، استراحة مستطابة، وعند

دخول المحجر، يجري التعقيم هنا أيضًا، ولكن بصورة سطحية جدًّا، وبصورة خفيفة بالنسبة للجميع، يوزعون الحجاج في تخشيبات مريحة جدًّا ورحبة، وجزئيًّا في خيام منصوبة في ظلال الأشجار، الماء جيد جدًّا، وموجود في كل مكان، النسيم الذي يهب من البحر بارد نسبيًّا، ومستطاب على الدوام، أمَّا المزية الرئيسية لمحجر بيروت الصحي، فهي الدكانة الواسعة، المزودة بجميع السلع والمآكل الضرورية، والتي كل شيء فيها رخيص نسبيًّا، ومن نوعية جيدة، وهنا اشترى الحجاج للمرة الأولى لحم الضأن الجيد، ووجدوا شتى الخضروات، وأكلوا الفواكه للمرة الأولى، وشربوا الحليب الممتاز، وهنا انتعش الجميع ومرحوا وتحسنت صحتهم».[٤٧]

هكذا تتَّضح المزايا العديدة لمحجر بيروت، لكن دولتشين يرى المزية الرئيسة، والأكثر أهمية، هي تلك التي تتجلّى في كون «المرء لا يشعر بأنه محبوس، معزول، ولا يرى أي حرس وأي خفر، والمجال إلى البحر مفتوح، وبفضل ذلك، ينعم الجميع بالاستحمام الرائع في مياه البحر، حوش المحجر الصحي نظيف كفاية، بيوت الخلاء المبنية في أماكن مختلفة على شاطئ البحر، ينظفونها ويعقمونها بعناية، وجميع الدروب والتخشيبات التي يسكن فيها الحجاج، تنار ليلًا (...). عند الرحيل قال الحجاج: من الأفضل لو أن الحجر الصحي كان في بيروت فقط، عوضًا عن الطور، وقالوا: إنهم يوافقون على البقاء في محجر بيروت، ولو بضعة أشهر».[٤٨]

تُبيِّن لنا هذه الشهادات مدى الانتعاش الذي شعر به الحجاج في محجر بيروت، ممَّا يجعلنا نعتقد أن بعضًا منهم لم يرفض المحجر الصحي لمجرد فكرته، وإنما رُفض للأجواء المقلقة لراحتهم، والمعطّلة لشعائرهم.

خاتمة

يتَّضح ممَّا سبق، أن الحجر الصحي ببيروت يختلف كثيرًا عن سابقه في الطور؛ بحيث تُمنح للمحجورين به كلّ الرعاية، مع المعاملة الحسنة، وفي ظل ظروف مناخية مريحة، ومع هذا، وإن كان بعض الفقهاء المغاربة قد لمس هذا الفرق الشاسع بين المحجرين: (الطور، وبيروت)، إلَّا أنَّهم ظلّوا معارضين تمامًا لهذا النوع من التدابير الصحية، نذكر منهم على سبيل المثال: محمد بن جعفر الكتاني، الذي صرح قائلًا: «ورأينا الكرنتينة في بيروت، أخف منها بالطور، وزادها خفة كونها في محل فسيح، فيه خضرة وأشجار، وأبنية رفيعة، فكان إلى النزهة أقرب منه إلى السجن، وعلى كل حال، فالذي يظهر لنا، أنه لا خير فيها، وأنها من مكايد النصارى، يريدون بها تعطيل هذه الشعيرة العظيمة، وتكدير أمرها على المسلمين، ووافقهم أمراء المسلمين عليها؛ إمَّا غلبة، وإمَّا فسقًا، فرج الله هموم المسلمين وغمومهم، وأعز دينهم بمنه وكرمه... آمين».[٤٩]

من هنا، يتَّضح أن مسألة الحجر الصحي ظلَّت قضية تلقى معارضة شديدة، حتى بداية القرن العشرين، خاصة من طرف أولئك الذين عدّوه حيلة، وظَّفتها الدول الاستعمارية لتعطيل شعائر المسلمين.

الهوامش والإحالات

(١) عبد الرحيم مؤدن، الرحلة المغربية: النص- النوع- السياق، (الدار البيضاء: مطابع إفريقيا الشرق، ٢٠٠٦م)، ١٨.

(٢) محمد الأمين البزاز، «حول الحج المغربي إلى الديار المقدسة في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين: استحداث محجر صحي للحجاج بجزيرة الصويرة (١٨٦٦)،» مجلة: دار النيابة، عدد ٦ (طنجة: الناشر، دار النيابة، ١٩٨٥م)، ٧١.

(٣) محمد بو شعرة، رحلة بو شعرة، كتاب مخطوط، خ.ع، ع ٣٢٥٩د، ١٠١.

(4) Abdallah Laroui, les Origines Sociales et Culturelles du Nationalisme Marocain (1830-1912) (Paris: Cambridge University Pres, 1977), 321.

(٥) محمد الأمين البزاز، «حول الحج المغربي إلى الديار المقدسة في القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين: المجلس الصحي والمخزن والحجاج (١٨٩٦-١٩٩٧ م)،» مجلة: دار النيابة، ع٩ (طنجة: مجلة دار النيابة، ١٩٨٦م)، ٨١.

(٦) محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، تحقيق: عبد الله الكامل الكتاني، وحمزة بن محمد الكتاني، ومحمد حمزة بن علي الكتاني، ٣ أجزاء، (الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م)، ٢١٦.

- وللإشارة، فقد أصدر الكتاني فتوى أخرى تهم الحجر الصحي وعدم مشروعيته، سنورد ذلك في حينه لاحقًا.

(٧) سعيد بن الأحرش، الرحلات المغربية إلى الديار المقدسة وتركيا خلال القرن التاسع عشر، وبداية القرن ٢٠، مصدر من مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي، (الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ٢٠٠٤م)، ٤٦.

(٨) الحسن الغسال، الرحلة الطنجوية المزوجة بالمناسك المالكية، تقديم وتحقيق: عبد الخلوق التمسماني، (المحمدية: مطبعة فضالة، ١٩٩٨م)، ٥٢.

(٩) محمد الأمين البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: سلسلة رسائل وأطروحات رقم ١٨، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٢م)، ٤٠٣.

(١٠) البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ٣٥-٣٢٢.

الفرقان الحسين، مفهوم الوباء عند الإخباريين المغاربة في القرن التاسع عشر، (الدار البيضاء: الجمعية المغربية للبحث التاريخي، مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٤م)، ٣٠٧.

مصطفى الغاشي، حول جائحتي المجاعة والوباء في مغرب القرن التاسع عشر، من خلال وثائق دفينة، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٤م)، ٣٢٩.

أحمد المكاوي، إشكالية العدوى والاحتراز من الأوبئة في مغرب القرن التاسع عشر، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٤م)، ٤٠٥.

بوجمعة رويان، التيفوس بالمغرب خلال الحماية ١٩١٢-١٩٤٥، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٤م)، ٤٧١.

بو جمعة رويان، نماذج عن الأحوال الصحية في البوادي المغربية خلال فترة الحماية. ندوات ومناظرات رقم ٧٧، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٩م)، ١٩٧.

كما خلَّفت هذه الأوبئة في تاريخ المغرب تراثًا فكريًّا، ارتبط بكثرة الكتابات والفتاوى والرسائل، مخلِّفة جدلًا كبيرًا في صفوف العلماء والفقهاء، حول إشكالية حقيقة العدوى، ونُحيل على بعض الدراسات التي تطرَّقت إلى هذا الموضوع، نذكر منها:

عبد المجيد الصغير، ملاحظات حول ردود فعل بعض مفكري المغرب العربي تجاه مشكلة الوباء والحجر الصحي في القرنين ١٨ و١٩، (طنجة: مجلة دار النيابة، ١٩٨٤م)، ٤٧.

البزاز، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ٤٠٣.

البزاز، المجلس الصحي والمخزن وكارثة ١٨٧٨م، ١٨.

البزاز، الحج المغربي إلى الديار المقدسة في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، ٦١.

(١١) مأخوذة من الكلمة الإيطالية Quarantina

Paul Robert, et al., Le Petit Robert: Dictionnaire de la langue française (Paris: le Robert, 1989), 936.

والمقصود بها الحجر، وإبعاد الشيء خارج الحدود لمدة أربعين يومًا، ويرجع هذا الرقم أساسًا للتسمية، لما كان يحدث في القرن الحادي عشر الميلادي، من عملية احتجاز للسفن، التي كانت تصل إلى المرافئ الأوروبية، العائدة من الشرق الآسيوي، مثل الهند لمدة ٤٠ يومًا، لمعرفة ما إذا كانت السفينة تحمل نوعًا من الأمراض، خوفًا من انتقاله إلى مدنهم، لأن هذه الفترة تسمح بظهور المرض.

وهذا التعريف نجده عند السفير المغربي ابن عثمان في رحلته إلى إسبانيا، فبعد وصوله إلى سبتة سنة ١٧٧٩م وصف الكرنتينة بقوله: «وقد ذكروا لنا قبل، أنّ لا بد من أن تجعل الكرنتينة، ومعناه أن يقيم الذي يرد عليهم في موضع معروف عندهم، معدّ لذلك أربعين يومًا، لا يخرج منه ولا يدخل إليه أحد...»

انظر: ابن عثمان محمد المكناسي، الإكسير في فكاك الأسير، تحقيق: محمد الفاسي، (الرباط: منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، ١٩٦٥م)، ٢٢.

(١٢) يقع محجر الطور على شاطئ خليج السويس، على بعد ٦٤ كلم جنوب مدينة طور سيناء، ومساحته ٤ كلم مربع. يحدّه من الغرب خليج السويس، وهو محجر مصر العام والحجاج المصريين، أسس منذ عام ١٨٥٨ م، ولكن لم يبدأ تنظيمه على الطراز الجديد، وتجهيزه بأحدث المعدات واللوازم الطبية، إلّا بعد صدور الأمر العالي بذلك عام ١٨٩٣م، ومن ذلك الحين أخذ ينمو ويتحسن، وكان هذا المحجر على شكل طائر له ثلاث أرجل، تمتد للخليج، حتى يتسنى للسفن الصغيرة الاقتراب من البر، وفي رأسه يقع معزل الموبوئين، وفي عنقه ٤ مستشفيات للأمراض العادية، وصيدلية كبيرة، ومنازل للأطباء والممرضات والعساكر، وبيت المال، ومخزن للكهرباء ينير المحجر كله، وجهاز للاتصال (التليفون)، يربط مراكز المحجر الرئيسة بعضها ببعض، وفي جناحيه أماكن إقامة الحجاج في صفوف، وكل صف يتسع لعشرة حجاج، وهما مجموعتان: مجموعة مبنية بالحجر، وقد خصّصت للحجاج القادمين من جدة، وأخرى مجهزة بالخيام للحجاج القادمين من ينبع، وتأوي آلافًا من الحجاج في وقت واحد، وفي وسط هذا المحجر، توجد بئر عذبة غزيرة المياه. وفيما يخص إدارة هذا المحجر، فقد كانت تتم عن طريق مأمور معين من نظارة الداخلية، لأنها المسؤولة عن سلامة وأمن الحجاج، ومراقبة الموظفين داخل المحجر، وملاحظة أسعار السلع الغذائية والمياه.

أما أعمال المحجر فجميعها أعمال صحية، وهي ملاحظة المرضى والاعتناء بهم، والكشف عن السلع الغذائية. وهناك القسم العسكري، ومهمته محصورة في ترتيب الحجاج في أمكنة تجمعهم في المحجر.

(١٣) بو شعرة، رحلة بو شعرة، ٩٩ -١٠٠.

(١٤) محمد بن جعفر الكتاني، الرحلة السامية إلى الإسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية، تحقيق: محمد حمزة الكتاني، ومحمود بن عزوز (بيروت: دار ابن حزم، ٢٠٠٥م)، ٢٣٣.

(١٥) بو شعرة، ١٠١.

(١٦) بو شعرة، ١٠١.

(١٧) يخبرنا الحاج بو شعرة أن السفينة الإنجليزية التي أقلّته من جدة إلى بيروت، كانت تحمل على متنها ١٤٠٠ حاج، دون المرضى الذين كانوا بمستشفى البابور.

(١٨) الصواب، الليبرة، وهي وحدة نقدية.

(١٩) الغسال، الرحلة الطنجوية المزوجة بالمناسك المالكية، ٥١.

(٢٠) هي نسيج كتان من النوع السميك.

(٢١) الغسال، الرحلة الطنجوية المزوجة بالمناسك المالكية، ٥١-٥٢.

(٢٢) الغسال، ٥١-٥٢.

(٢٣) محمد التوزاني المضاري، الرحلة، تحقيق: عبدالله عاصم، (الدار البيضاء: دار النشر المغربية، ١٩٩٧م)، ١١٤-١١٥.

(٢٤) إبراهيم باشا، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية محلاة بمئات الصور الشمسية، ط١، ج١، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٢٥م)، ٣١.

(٢٥) باشا، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية محلاة بمئات الصور الشمسية، ج٢، ٤٩١.

(٢٦) ناصر الدين الفونسو إتيان ديني، الحج إلى بيت الله الحرام، ترجمة وتقديم: عبدالنبي ذاكر، (فاس: مطبعة أنفو، منشورات المركز المغربي للتوثيق والبحث في أدب الرحلة، طبعة ١، ٢٠٠٦م)، ٢٣.

(٢٧) دولتشين، الرحلة إلى مكة المكرمة، تقديم: نعيم ريزفان، (بيروت: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ١٩٩٣م)، ٢١٧.

(٢٨) دولتشين، الرحلة إلى مكة المكرمة، ٢١٧.

(٢٩) دولتشين، ٢١٧.

(٣٠) الغسال، الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية، ٥١.

(٣١) دولتشين، الرحلة إلى مكة المكرمة، ٢٢٣.

(٣٢) دولتشين، الرحلة إلى مكة المكرمة، ٢١٨.

(٣٣) دولتشين، الرحلة إلى مكة المكرمة، ٢١٨.

(٣٤) الغسال، الرحلة الطنجوية الممزوجة بالمناسك المالكية، ٥١-٥٢.

(٣٥) دولتشين، الرحلة إلى مكة المكرمة، ٢١٩.

(٣٦) دولتشين، الرحلة إلى مكة المكرمة، ٢١٩.

(٣٧) الكتاني، الرحلة السامية، ٢٣٢.

(٣٨) دولتشين، الرحلة إلى مكة المكرمة، ٢٢٠.

(٣٩) الكتاني، الرحلة السامية، ٢٣١-٢٣٢.

(٤٠) الكتاني، الرحلة السامية، ٣٢٢.

(٤١) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ٩ أجزاء، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، (الدار البيضاء: دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٥م)، ١٨٣.

(٤٢) الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ١٨٥.

(٤٣) محمد بن عبد الكريم، دراسات في تاريخ الجزائر، (الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٦٨م)، ١٥٩.

(٤٤) شكيب أرسلان، الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف (١٩٢٩)، تحقيق: أيمن حجازي ورشيد رضا، (أبوظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م)، ٢٨٨.

(٤٥) بو شعرة، ١٠٢-١٠٣.

(٤٦) الغسال، الرحلة الطنجوية، ٥٣.

(٤٧) دولتشين، الرحلة إلى مكة، ٢٢٢-٢٢٣.

(٤٨) دولتشين، الرحلة إلى مكة، ٢٢٣.

(٤٩) الكتاني، الرحلة السامية، ٢٣٣.

تقارير

الانقلابات في إفريقيا: بين الكمون والانفجار

د. هارون باه، باحث في الشؤون الإفريقية، زيغنشور.

على الرغم من أن القارة مرَّت بعقود من الاستقلال فإنها لَمَّا تتعافَ من داء الاستيلاء على السلطة بالقوة، بدليل وقوع ثمانية انقلابات منذ عام ٢٠٢٠م، وهو معدل مرتفع بالنظر للمرحلة الراهنة. وقد تصاب الدولة بفتنة الانقلاب في العام مرة أو مرتين، كما هو الحال في المدَّة الفاصلة بين انقلابي بوركينا فاسو، الذي نُفِّذَ من جانب الكولونيل: بول هنري داميبا، على الرئيس: روش مارك كريستان كابوري، والمضاد له من الملازم: إبراهيم تراوري، في غضون تسعة أشهر، مع حصول محاولة فاشلة ضد الأخير. وفي سعيها الحثيث لاستقرار الأنظمة السياسية الحاكمة، أدانت المواثيق القارية الانقلابات العسكرية، كطريق للوصول إلى السلطة بالقوة والعنف، ومن هنا يأتي السؤال: لماذا بعد كل هذه السنوات من إعلان الاستقلال، ورفض النظام الإقليمي للتغييرات غير الدستورية، لا تزال القارة تشهد انقلابات عنيفة؛ ناجحة كانت أو فاشلة، مخلِّفة وراءها جروحًا غائرة في طبيعة الأنظمة السياسية، ومؤسسات الدولة، وحقوق المواطن وحريته، وصولًا إلى الموجة الأخيرة، مع التساؤل عن مميّزاتها، ودور المنظّمات الفرعية في استعادة النظام الدستوري؟ هذا ما سنبحثه، من خلال المحاور الآتية:

أولًا - على أعتاب السلطة

لا تنفكُّ المشكلات الإفريقية المعاصرة، الناتجة عن ردود أفعال على الأوضاع الكلية تكشف عن طبيعة «العقل السياسي الإفريقي»، وأداء القيادة في قدرتها أو عجزها على إدارة الأزمات، وإيجاد الحلول الناجعة، أو التقليل من المخاطر الكامنة، والتصدي للمستجدات الحالية والمتوقعة، في منطقة حبلى بالأحداث، وهو ما يفرض رؤية وإستراتيجية جديدة، لدى كل الفاعلين في الشأن العام، لأجل استتباب الأمن والاستقرار.

وأيسر تعبير للانقلاب هو كشف الخلل الكامن في جهاز الحكم ـ كلياته وجزئياته ـ والقصور في إدارة الدولة، وتسيير المؤسسات، ويأتي كنتيجة مباشرة وعنيفة على انسداد الأفق داخليًّا؛ إلَّا أنَّ تتابعَ انتزاع السلطة بالقوة، وبالأخص في منطقة غربي إفريقيا، يستوجب البحث عن الأسباب الكامنة وراء الظاهرة الزاحفة، التي فرضت نفسها على كل الحقب.

وقد تتضافر عوامل داخلية وخارجية على تفجير أوضاع بلد ما، من قبيل اشتداد الاستبداد بالسلطة، والتضييق على المواطنين، وعلى الإعلام، وتسييس مرفق العدالة، والتغاضي عن قضايا الفساد، وضغط المنظمات الدولية على النظام السياسي، مع قوة تأثير الجاليات الإفريقية بالغرب، في إيصال صوت المعارضة للرأي العام الدولي.

وعليه؛ فثمة مؤشرات ممهدة لوقوع «انحراف» في تسلُّم السلطة، أو الاحتفاظ بها، كما وقع في آخر ممارسة انقلابية؛ حيث يسطر التاريخ السياسي الغابوني المعاصر، أن الحكومات المتعاقبة لم تستطع النهوض بشؤون المواطنين، وتلبية احتياجاتهم وتطلعاتهم، بل بقي المستفيد الأكبر من كل خيرات البلاد هو الزعيم: ديغول وخلفاؤه من بعده بالأساس، ثم في رتبة تالية النظام الحاكم، وعلى جنبات الإقصاء يصارع الشعب الاستوائي من أجل بقائه على قيد الحياة.[١]

وتأتي الموجة الأخيرة من الاضطرابات الأمنية في سياق عودة تنافس القوى الكبرى على إفريقيا، والانفجار الديمغرافي، وتأثير وسائل الإعلام، والمماطلة في تلبية ضرورات الحكم الرشيد، والتنمية الشاملة، مصحوبة بتغيُّرات مناخية ذات أثر ملموس في السكان (الساحل، والقرن الإفريقيين)، وارتفاع الأصوات المناهضة للاستعمار الجديد، والمركزية الأوروبية، مع غياب «ذكاء سياسي» من الحكومات الإفريقية، ومن صانع القرار الأوروبي، الذي تناسى الحسابات المستقبلية؛ أي لحظة صحوة الشعوب الإفريقية لاسترداد ما فُقد.

كل ذلك، إلى جانب جبهات دولية ساخنة بأوروبا ـ المواجهة بين روسيا وأوكرانيا ـ وبمنطقة الشرق الأوسط، وأقصى الشرق، وتطلع شعوب العالم لإصلاح جذري للمؤسسات الدولية الناشئة عن قواعد المنتصرين بالحرب العالمية الثانية، أعني: «هيئة الأمم المتحدة»، ما أسفر عن ضعف مسايرة النظام الإفريقي الإقليمي للتطورات السياسية الجارية، سواء منها ما تعلق بالحروب، أو الأوبئة، أو التغيّرات المناخية.

ويزيد السباق المحموم على زعماء القارة حملًا ثقيلًا، يفرض العمل الجاد، وأخذ زمام المبادرة؛ حيث إن شباب اليوم يتطلع بتحفز نحو التغيير، وتجنب أخطاء الماضي، ممَّا يؤجج الاحتجاجات والمظاهرات الحاشدة حال وقوعها، وهو ما يدعو الأطراف الفاعلة في الشأن السياسي، إلى إعادة الاعتبار لمفاهيم من قبيل: المصلحة العامة، والخدمة، والتناوب السلمي، وغيرها من القيم الأساسية، والضابطة لإيقاع الاجتماع الإفريقي بصورة عامة.

ويقول محللون: إن الانقلابات العسكرية في القارة الإفريقية، في العقدين الأخيرين، تميّزت بسلميتها، وابتعادها عن العنف. ولاحظ مراقبون أن العسكريين الذين يضطلعون بتلك الانقلابات هم - في الأغلب - من القادة الشباب. كما هيمن على تلك الانقلابات خطابٌ معادٍ للغرب، وخاصة فرنسا.[٢]

ثانيًا - القواسم المشتركة بين الدول الانقلابية

هناك قواسم مشتركة بين الدول التي تحدث فيها الانقلابات، وعلى النحو الآتي:

١- سياسيًّا: وجود مشكلات داخلية مزمنة، غالبًا ما ترتبط بالعجز عن تدبير الشأن العام تدبيرًا محكمًا، وإدارة السلطة بين مختلف الفرقاء، بما يضمن الاستقرار، والحفاظ على العقد الاجتماعي القائم، والاستجابة لمقتضيات الحكم الديمقراطي، والمشاركة، وكرامة المواطن.

فيما لا تزال كثير من الدول الإفريقية تضيق ذرعًا بوجود معارضة قوية، ملتزمة بالقواعد الديمقراطية، تسمح للشعوب بتنويع الاختيار؛ إذ إن امتلاك خيار التمثيل هو المقصد من كل الانتخابات، التي سيترتب عنها وصول قيادات ونخب جديدة إلى صناعة القرار، مجسدة إرادة الشعوب في التغيير نحو الأفضل.

ثم إن إطالة أمد القائمين على السلطة؛ أي تجاوز العهدتين الرئاسيتين، كما ظهر في عدد من الدول- سببٌ لمزيد من التوتر السياسي والاجتماعي، يمكن رصده بـ: غينيا كوناكري، والغابون، وما تراجع الرئيس السنغالي: ماكي صال عن الترشح لولاية ثالثة، إلا فرارٌ من جرِّ البلاد لاضطرابات عنيفة، لكن الالتزام بالمدَّة الرئاسية دستوريًّا ليس ضمانًا مؤكّدًا لعدم حصول انقلاب، كما حدث في نيامي؛ حيث إن الرئيس السابق: محمد إيسوفو اكتفى بالولايتين الدستوريتين، ممَّا يعني أن الأزمة أعمق من مجرد استبدال رئيس برئيس، حتى وإن كان بطريقة سلمية وشرعية.[٣]

٢- اقتصاديًّا: التّطلُّع إلى الحدِّ من المصالح الغربية، سيما الفرنسية، التي تستحوذ شركاتها في النيجر على المعادن النفيسة، والمواد الإستراتيجية، والاتصالات، علمًا أن حجم النفوذ الفرنسي يشمل حوالي ثلث القارة الإفريقية، وهو الأكبر على الصعيد الأوروبي.[٤]

كما تلعب - في الوقت نفسه - الظروف الاقتصادية، والفساد المستشري، وسوء المعيشة، دوراً مهمًّا في تأجيج الصراع، وإثارة الاحتقان على السلطة، وزعم الجنرالات تقويم المسار، بافتكاك السلطة من الحاكمين الحاليين.[٥]

٣- اجتماعيًّا: بروز تهديد للسِّلْم الاجتماعي، والوحدة الوطنية، مع اختلال توازن تنمية المناطق بين الأرياف والمدن، وأحيانًا بين الأحياء في المدينة الواحدة، ممَّا يشعر المواطنين بالتهميش والعزلة؛ حيث لا تزال إفريقيا تواجه التحدي الكبير، المتمثّل في الوصول إلى الطاقة، ومن دون الطاقة الآمنة، والموثوق بها على نطاق واسع سيكون من الصعب على البلدان الإفريقية تحقيق أهدافها الإنمائية،[٦] مع غياب العدالة الاجتماعية، وعدم توفير الاحتياجات الأساسية للمواطنين،[٧] وانتشار البطالة بين صفوف الشباب، التي ترافقها موجات هجرة في طول العالم وعرضه، وأخيرًا قد تغذّي تلك السياسات التوجُّهات الانفصالية.

على أن الأسباب المركبة، التي تُبقي على استمرار الانقلابات بالتجاهل والتغاضي عن مشكلات الجماهير الشعبية المسحوقة، كما تبرهن نسب الفقر العالية، وفقدان الأمل في الحكام، والمطالبة المستمرة في تحسين الأوضاع المعيشة (التعليم، الصحة، الأمن الغذائي، التشغيل).

٤- **أمنيًّا:** وجود انفلات أمني مرتبط بتمدد الحركات المسلحة ببلدان الساحل، بمالي وبيركينا فاسو والنيجر، ثم ما ينشأ عادة عن تعدد المشاريع الاستعمارية، من تأثير تجزئة منطقة جغرافية سياسية في التماسك الاجتماعي، كما في غربي إفريقيا مثلًا، وفي الوسط كذلك، وتنامي المطالب الشعبية برحيل القواعد العسكرية الأجنبية؛ إذ لا يمكن للوجود العسكري أن يكون بهذا الأسلوب التقليدي، أي أسلوب التدخلات، وأسلوب القواعد العسكرية؛ فكل هذا عفا عليه الزمن،[٨] حسب السياسي الفرنسي: دومينك ديفلبين.

٥- **دبلوماسيًّا:** ضعف التكامل الإقليمي بين دول الجوار؛ ولعل مؤشر التبادل التجاري أبلغ جواب على نسبة التعاون بين دول الطوق، ثم رغبة بعض الحكومات في تحويل الوجهة الدبلوماسية، ببناء علاقات شراكة متنوعة مع بلدان جديدة، أو التخفيف من حدّة استفراد الشريك القديم.

ويمكن القول: إن الدوافع الانقلابية من الموجة الأخيرة تنتظم في إطار تحقيق سيادة كاملة، بغضِّ النظر عن توافر متطلباتها الذاتية والموضوعية، أي أن التحركات الأمنية الداخلية لا تنفكّ عن المطالب السيادية المدوية بمختلف أرجاء القارة، ومن شتى القطاعات.

ثالثًا - المدني والعسكري: من التابع ومن المتبوع؟

رفع الانقلابيون راية مواجهة الإمبريالية الغربية بشتى تجلياتها في الواقع الإفريقي، وارتبط بتلك الدعوى تأييد الشعوب لقادتها الجدد، علاوة على ازدياد أعداد الحركات الشبابية الرافضة للتبعية كـ « امْ ٦٢ » بالنيجر، وغيرها. تلك القضية التي عادت إلى الساحة السياسية الإفريقية، مصحوبة بانبعاث انتماء إفريقي لمقاومة «الظلم والاستبداد»، وفي خضم ذلك، نددت سلطات الانقلاب في نيامي بالاتفاقيات الدفاعية، ودخلت في مسلسل مفاوضات لإجلاء الجنود الفرنسيين عن بلادها، ثم جدولة انسحاب القوات الأمميَّة بمالي نهائيًّا، مطلع عام ٢٠٢٤م، والمناداة بذلك في مناطق أخرى من إفريقيا.

لكن مع ذلك، ينبغي إعادة النظر في العلاقة بين المدنيين والمؤسسة العسكرية، قبل الانقلابات وبعدها (في مالي: العلاقة بين الشيخ: ديكو والعسكر، والمجتمع المدني والنظام الحاكم في دول أخرى)، وتظهر هذه المشكلة في أثناء تحديد فترات الانتقال بين الحكام الجدد والمدنيين بوضوح؛ فكثيرًا ما يتقدَّم العسكر بمدة زمنية، توحي أنهم غير مستعدين لتسليم السلطة في الحين، بل اقتسامها، كما يمكن القول بأن ثمَّة دولًا

إفريقية، لم تخرج إلى اليوم من سيطرة الجيش، وإن خلع أصحاب البزات العسكرية لبوسهم، واتخذوا من الزي المدني مظهرًا للحكم، ممَّا يبرهن على أن المنظومة الأمنية، لم تستطع بناء جيش جمهوري، يلتزم بوظائفه المهنية والوطنية، تاركًا إدارة شأن السلطة للمواطنين المدنيين، بلا منازعة ولا خصومة، وهو ما يعني فشل مؤسسات الدولة في القيام بدورها. وأخيرًا قصور المؤسسات الحكومية في إدارة الحياة السياسية برمتها، بالوسائل الغربية المستعارة «الديمقراطية الغربية».

بيد أن النصوص واضحة في تحديد مهام المؤسسة العسكرية، وطبيعة العلاقة بين الطرفين، كما في الفقرة الخامسة من المادة الأولى من البروتوكول الإضافي، حول الديمقراطية والحكم الرشيد، للمجموعة الاقتصادية لدول غربي إفريقيا: «الجيش غير سياسي، ويخضع للسلطة السياسية المنتخبة؛ ولا يمكن لأي جندي عامل، أن يطالب بتفويض سياسي انتخابي»، ويلحق بذلك ما ورد في المادة ٢٠، التي تقول في فقرتيها:

١. تخضع قوات الجيش والأمن العام لسلطات مدنية شرعية.

٢. يجب على السلطات المدنية أن تحترم عدم تسييس الجيش؛ وتحظر جميع الأنشطة والدعاية السياسية أو النقابية في الثكنات، وداخل القوات المسلحة.[٩]

وشكَّل انقلاب النيجر من الحرس الرئاسي منعطفًا حاسمًا في تاريخ الانقلابات العسكرية، في القارة من حيث:

- طرح فرضية التدخُّل العسكري لإنقاذ شخصية الرئيس محمد بازوم، واستعادة النظام الدستوري، مع تباين حول دوافع المتحمسين للعملية العسكرية، كما هو الفارق بين منظمة الإيكواس وباريس، حيث تسعى الأولى من وراء ذلك إلى تعزيز الديمقراطية، والحفاظ على النظام الدستوري، أمَّا الأخيرة، فلضمان استمرار مصالحها المتعددة، على خلاف أطراف أوروبية داعية للحل السلمي، وفتح باب التفاوض والحوار، ما يعني كذلك أن السياسات الأوروبية بإفريقيا غير منسجمة، وسبق لقوات المجموعة أن تدخلت في سيراليون، بعد الإطاحة بالرئيس سنة ١٩٩٨م.
- دفع فرنسا إلى إعادة تموقعها في القارة، وإظهار ازدواجية باريس تحديدًا، في سياستها الخارجية مع الدول الأوروبية من جهة، ومع حلفائها الأفارقة من جهة أخرى.
- ظهور خط مواجهة بين حلفاء روسيا، في مقابل مناصري القوى الغربية بإفريقيا.

رابعًا - دور المنظمات الإقليمية الفرعية: الإيكواس

نشأ العمل الإفريقي الموحد لمواجهة التحديات المعاصرة، ومنها استتباب الأمن القاري والفرعي، وشددت المواثيق على رفضها لكل تغيير غير دستوري، ومنها: إعلان لومي عام ٢٠٠٠م، المعبر عن رفض النظام الإقليمي للتغييرات غير الدستورية للحكومات.

وتقوم المنظمات الإقليمية بأدوار معهودة في مثل هذه الحالات: من الشجب والإدانة، وفرض حزمة من العقوبات على المؤسسات، وعلى بعض المسؤولين المتورطين، وصولًا إلى تعليق العضوية بالاتحاد القاري. والظاهر أن كل انقلاب تكون معالجته انفراديًّا؛ أي أن كل حالة لها ما يناسبها، وليس هناك حل جماعي ينسحب على الجميع، خصوصًا من وجهة نظر باريس، ويتَّضح ذلك بإجراء مقارنة بين حالتي: باماكو، وإنجامينا، ونيامي، وليبرفيل، مثلًا. وعقدت الصحيفة ـ نيويورك تايمز ـ مقارنة بين ردود الفعل الدولية، حيال ما حدث صباح الأربعاء في الغابون، وما شهدته النيجر، فذكرت أن انقلاب الغابون، قوبل بتنديد دولي فوري، إلا أنه «على عكس النيجر، التي هددت دول مجاورة بالتحرك عسكريًّا، لإنهاء انقلاب الشهر الماضي فيها، ولم يكن هناك اقتراح لـ (استخدام) القوة» في الغابون.[١٠]

لكن دور المنظمات مرشح للازدياد والتوسّع مستقبلًا، في ظل ظروف أمنية مشابهة، بحجة استعادة النظام الدستوري، والعمل وفق خطة إسكات البنادق، وأجندة ٢٠٦٣، كل هذا يمهد السبيل لارتفاع مستوى تدخل المنظمات، وهنا أيضًا تتجه المسؤولية إلى الهيئة الفرعية، للقيام بدورها الرقابي الوقائي، وتفعيل مقتضيات الحكومة الرشيدة، والإنصات لمطالب الشعوب، ورعاية حقوق المواطنين، ومحاربة الرشوة؛ فقد جاء في المادة ٣٢ من البروتوكول الإضافي، حول الديمقراطية والحكم الرشيد للمجموعة: تتفق الدول الأعضاء على أن الحكم الرشيد، وحرية الصحافة، ضروريان للحفاظ على العدالة الاجتماعية، ومنع الصراعات، وحماية الاستقرار السياسي والسلام، وتعزيز الديمقراطية، وتنص المادة ٣٨ في فقرتيها:

١. تتعهد الدول الأعضاء بمحاربة الفساد، وإدارة الموارد الوطنية بشفافية، وضمان توزيعها العادل.

٢. وفي هذا الإطار تتعهد الدول الأعضاء، والأمانة التنفيذية، بإيجاد الآليات المناسبة للتعامل مع مشكلة الفساد داخل الدول، وعلى مستوى فضاء المجموعة.

وأثبتت محاولات الهيئة الإقليمية الفرعية، أن فرض منطق التنحي بالقوة على منتزعي السلطة، ليس الضامن لإنهاء استلابها، أو أن ورقة التدخل العسكري، لَّما يحن وقت تفعيلها، لانعدام شروطها الداخلية والخارجية، وللمصالح المتباينة للشركاء، وتعدد النقاط الساخنة والملتهبة، ممَّا يحتم البحث عن صيغ جديدة، ذات أثر مباشر في الانقلابيين، بديلة عن التدخل العسكري في المنطقة المكلومة، بجروحها الفتّاكة أصلًا.

يبقى أن مفعول الانقلاب لنهضة الدول، واسترداد مكانتها إقليميًّا ودوليًّا ضعيف؛ فليس طرد قوى أجنبية ببديل عن التحالف مع دولة عظمى؛ فلا مناص من التعاون، وغاية ما في الأمر أنه ينبغي أن تحقق المكاسب للمجتمعات الإفريقية، وليس للدول الوافدة فقط، والركون لأية لحظة انقلابية، يعني استبداد فئة من فئات المجتمع بالسلطة، وتركزها بيد مجموعة قليلة، ممَّا يعيد مسار الدولة لنقطة البداية.

وينبغي التذكير بأن الانقلابات في القارة لم توفق في رسم طريق واضح للتنمية والعدالة الاجتماعية، أو بناء

تجربة ناجحة؛ وإن نجحت في حياة القائد، فلن يكتب لها الاستمرار بعد رحيله، كتجربة «توماس سانكري» في بوركينا فاسو في ثمانينيات القرن الماضي، ممَّا يعني أن الوصول إلى السلطة بالقوة ليس الطريق الموصل إلى بر الأمان؛ فقد يكون مهدِّئًا، لكنَّه من المؤكد ليس العلاج الشافي.

قد تكون إحدى تداعيات الانقلابات الإفريقية الأخيرة، والمظاهرات ضد فرنسا، توسع دائرة اللغة الإنجليزية، بحلولها محل إحدى القلاع الثقافية المنافسة، كما هو الشأن في مجموعة من الدول الفرنكفونية.

ختامًا

إن أي نقطة اليوم في العالم هي في قلب الجيوسياسية الدولية، كما كشفت نيامي ـ الحبيسة ـ باستقبالها للقواعد العسكرية، ثم توفرها على الموارد كاليورانيوم، والنفط، ثم التنافس بين القوى الدولية على النفوذ بمنطقة الساحل، والقرب من أوروبا، وما يمكن أن تخلفه عواقب الهجرة على الأمن الأوروبي.

ثبت من رصد الانقلابات الأخيرة من عام ٢٠٢٠م، إلى يومنا هذا، أن نسبة صدورها من الدول الضعيفة، وذات الهشاشة العالية، أكثر من غيره، وسوف تنتهي إلى رسم خريطة جديدة من التحالفات، والشراكات الإقليمية والدولية، مع تصاعد الحروب الإقليمية أو الدولية، أو التهديد بها.

لا يمكن توقع انتهاء الانقلابات العسكرية في إفريقيا، رغم مرور السنين العديدة على الاستقلال، ما دامت أسبابها قائمة؛ وأي رفض لها، ينبغي أن يبدأ بمعالجة أسبابها المركبة في المجتمع؛ لكن التحول الحقيقي الذي يمكن أن يحدث تغييرًا جذريًّا، فيتوقع أن يكون صادرًا من الشعوب، بدءًا بإعطاء الأولوية للتعليم والتكوين، بمختلف مستوياته، وسد الاكتفاء الذاتي.

الهوامش والإحالات

(١) هارون باه، «الغابون: قرار الانضمام إلى رابطة الكومنولث ...الدلالات والمآل،» متابعات إفريقية ١٥، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ٢٠٢١م)، ٤١،
https://www.kfcris.com/pdf/aedcd9f375f0c6c1dec9463b5de8e22c60e1688129e1b.pdf.

(٢) «انقلابات إفريقيا: خلال ٢٠ عاما هذه أبرز الانقلابات التي شهدتها القارة السمراء،» بي بي سي عربية، (٣٠، أغسطس، ٢٠٢٣م)،
https://www.bbc.com/arabic/articles/c19g8nvz829o.

(٣) وقد شكلت فترة الرئيس بازوم شعلة أمل في انتخاب ثاني رئيس مدني، وتكريس تحول ديمقراطي وتناوب سلمي بالنيجر، ومع ذلك تراجعت التجربة النيْجرية ومثيلاتها في القارة، لافتقاد الشروط الموضوعية لوصول التجربة إلى الكمال.

(٤) منصف السليمي، «تحليل: سياسة أوروبا الإفريقية.. مراجعات متأخرة ونفوذ يتآكل!،» DW عربية، (٦، سبتمبر، ٢٠٢٣م)،
https://www.dw.com/ar/تحليل-سياسة-أوروبا-الإفريقية-مراجعات-متأخرة-ونفوذ-يتآكل/a-66729697.

(٥) «قارة إفريقيا شهدت أكثر من ٢٠٠ انقلاب عسكري منها ٤ العام الحالي .. تعرف على تاريخ الانقلابات في القارة السمراء،» المصدر أون لاين، (٩، سبتمبر، ٢٠٢١م)،
https://almasdaronline.com/articles/235002.

(٦) «دليل إبراهيم لشؤون الحوكمة في إفريقيا لعام ٢٠٢٢: النتائج الرئيسية،» مؤسسة محمد إبراهيم، الاسترجاع: ٣١، أكتوبر، ٢٠٢٣م،
https://mo.ibrahim.foundation/sites/default/files/2023-03/2022-iiag-key-findings_ar.pdf.

(٧) كثير من الدول الإفريقية لا تتوافر على بيانات كافية عن الحالة المدنية ممَّا يتعلق بتسجيل المواليد والوفيات فضلاً عن غيرهما، ولا تزال القدرات الإحصائية الإقليمية مترددة بين القلة والغياب ممَّا يشكل عائقًا في رسم الخطط الإنمائية المضبوطة.

(8) “Retrait des forces françaises en Afrique : pour Dominique de Villepin, la France fonctionne “très à l’ancienne” et méconnait profondément les “nouvelles réalités africaines”,” *Sene Web*, Septembre 12, 2023,
https://www.seneweb.com/news/International/retrait-des-forces-francaises-en-afrique_n_420446.html.

(9) Communauté Economique des Etats de l’Afrique de l’Ouest, *Protocole A/SP1/12/01 sur la Démocratie et la Bonne Gouvernance additionnel au protocole relatif au mécanisme de prévention, de Gestion, de règlement des conflits, de maintien de la Paix et de la Sécurité* (Dakar: CEJA, 2001),
https://www.ceja.ch/images/CEJA/DOCS/Bibliotheque/Legislation/Africaine/Textes%20Regionaux/DD/DD6.pdf.

(١٠) «انقلابات إفريقيا ـ مغادرة الوصاية الفرنسية والدخول تحت نفوذ روسيا؟،» *DW*، (٣١، أغسطس، ٢٠٢٣م)،
https://www.dw.com/ar/انقلابات-إفريقيا-مغادرة-الوصاية-الفرنسية-والدخول-تحت-نفوذ-روسيا/a-66682837.

الأمن السيبراني ومواجهة الإرهاب الإلكتروني

د. هبه عاطف الجابري، مدرس الإعلام بالمركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة.

تستهدف سياسات مكافحة المحتوى المتطرّف العنيف عبر الإنترنت، عددا من الأمور، ومن بينها: وضع اللوائح والتشريعات التنظيمية، للحدّ من نشر هذا المحتوى، سواء بالحذف والحجب، أو نشر الرسائل المضادة، التي تفنّد الآليات الدعائية، المستخدمة في المضامين المتطرفة، التي تبثّ على المنصات الإلكترونية المختلفة.

ويمكننا القول: إن عمليات الاتصال بالجماعات المتطرفة المسلحة، في بادئ الأمر، كانت داخلية، تعتمد بصورة أكبر على الشكل الرأسي للاتصال بين القادة والأعضاء؛ فتُنشَر الكتب والخطب كمرجعيات فكرية، موضحة للفكر والإطار الأيديولوجي، الذي تُستَمد منه آليات الإقناع، وتُبثّ للأعضاء حثًّا على تنفيذ الأهداف والإستراتيجيات، كما استُخدمت المواد المكتوبة في تواصل قادة الجماعات، بعضهم مع بعض، وتسجيل المناظرات الفكرية بينهم.

وظلّ الأمر هكذا حتى ظهور الإنترنت، وهنا شرعت الجماعات المتطرفة المسلحة لتغيير شكل الاتصال، من التواصل الرأسي، إلى التواصل الأفقي، في محاولة منها لاستهداف قاعدة أوسع من الجمهور حول العالم، على اختلاف اللغة، والنوع، والعقيدة، والجنسية.

لقد أصبح الإنترنت عنصرا مهمّا في عمل الجماعات المتطرفة المعاصرة؛ فموجات الإرهاب، ارتبطت تاريخيّا بالتقنيات الاتصالية الجديدة، التي استطاعت أن تنشر الأفكار المختلفة على نطاق واسع، لا سيما أن الدعوات المختلفة، من جانب الجماعات المتطرفة المسلحة، على شبكة الإنترنت بالعالم الافتراضي، كان لها مردود في العالم الواقعي؛ فقد شهدت بلدان مختلفة ارتفاعا طفيفا في مغادرة بعض العائلات لها، بعد دعوات الهجرة إلى أرض الخلافة. كما انتشرت أنواع مختلفة من الهجمات الإرهابية، كرد فعل للمحتوى المحرض على تنفيذ عمليات الذئب المنفرد «Lone wolf» مثل: دهس الأشخاص بالسيارات في الأماكن المزدحمة، والطعن بالسكين.[١]

كما ساهمت وسائل التواصل الاجتماعي والإنترنت، في رفع وتيرة السرعة، وزيادة التعقيد، وخفض تكلفة مشاركة المعلومات. وقد دعم هذا بدوره العديد من الجماعات المتطرفة المسلحة؛ بل لقد عمل على إتاحة إعادة تنظيم بعضها، وترتيب أوراقها من جديد، وتعزيز قدرة كل خلية وكل فرد، على العمل بأسلوب أكثر استقلالية.[٢]

ونبسط الحديث في هذا الموضوع، ونناقشه، من خلال المحاور الآتية:

أولا - نشاط الجماعات المتطرفة المسلحة عبر الإنترنت، والنهج التشاركي للحد منه

يمكننا تقسيم هذا النشاط إلى ثلاث مراحل:[٣]

المرحلة الأولى: من عام ١٩٩٠ - ٢٠٠٦م «الويب ٢,٠»؛ فبحلول عام ١٩٩٥م، بلغ عدد المستخدمين ١٦ مليون مستخدم، وكان المتطرفون من أوائل من تبنوا استخدام الإنترنت، لأنه غير مكلف، ويتيح الوصول لأعداد متزايدة من الجماهير.

ثم المرحلة الثانية: من عام ٢٠٠٧ - ٢٠١٥م؛ وهنا بدأ دور منصات التواصل الاجتماعي، مع بزوغ تقنية الهواتف الذكية، وتزامن ذلك مع صعود أشهر الجماعات المتطرفة المعاصرة، التي استخدمت منصات التواصل الاجتماعي في دعايتها.

وأخيرا المرحلة الثالثة: فمع بداية عام ٢٠١٦م، وحتى الآن؛ اتّخذت المنصّات نهجا نشطًا في إزالة محتوى الجماعات المتطرفة، على منصات التواصل الاجتماعي، وعلَّقت منصة تويتر في هذا العام، أكثر من ٢٠٠ ألف حساب متطرّف.

ومع تصاعد وتيرة الأعمال الإرهابية خارج مناطق النزاع، ونجاح الجماعات المتطرفة في تجنيد عناصر عبر الإنترنت، وانتشار أعمال العنف، التي باتت الجماعات المتطرفة تدعو لها في موادها الدعائية على الإنترنت، وتوضح كيفية التخطيط والتنفيذ، وهو الأمر الذي يرهق أعتى المؤسسات الأمنية، استشعرت الدول، أن الملاحقات الأمنية، ستؤدي لمزيد من المعارك التي لا نهاية لها، وبدأت مرحلة التفكير في سياسات بديلة، لمكافحة تواصل تلك الجماعات عبر الإنترنت.

وجاءت البداية في تطبيق النهج التشاركي مع منفذي، أو مطلقي الخدمات عبر الإنترنت، والعمل على ضبط منصات التواصل الاجتماعي، والوصول بالخوارزميات لحجب ومنع المنشورات المحرضة على العنف والتطرف؛ فقد أعلنت شركات تويتر، والفيسبوك، ومايكروسوفت، ويوتيوب، في ديسمبر عام ٢٠١٦م، عن تعاون مشترك، مؤكدين في بيان لهم العمل على وضع خطة لتطوير أدوات مبتكرة، لتحديد مقاطع الفيديو ذات المحتوى المتطرف العنيف، مع الالتزام بحذف صور أعمال العنف، وإزالتها من منصاته.[٤]

توالى تطبيق النهج التشاركي، في مكافحة الجماعات المتطرفة على الإنترنت؛ فقد أدركت الشركات العاملة في المجال، أن الصناعة باتت مهددة؛ وبالفعل، أُسِّس منتدى الإنترنت العالمي لمكافحة الإرهاب في عام ٢٠١٧م، بواسطة فيس بوك، وميكروسوفت، وتويتر، ويوتيوب، ومع وجود خبراء من الحكومات والمجتمع المدني، وشركات أخرى في المجال التقني؛ بهدف التعاون

التقنـي والمعـرفي، لمعالجـة المحتـوى المتطـرف العنيـف عـبر الإنترنـت، وتمويـل الأبحـاث، لمواجهـة الاسـتخدام المتطـور للإنترنـت، مـن قِبـل الجماعـات المتطرفة.[٥]

وتستمر أعمال منتدى الإنترنت العالمي لمكافحة الإرهاب، وقاعدة بياناته، في إنشاء بصمات رقمية، لأي محتوى متطرف عنيف يُنشر، ويُشارك مع الشركات الأخرى في الائتلاف؛ ممَّا يسهم في اكتشاف محتوى مشابه، ومراجعته بسهولة أكبر لإزالته. إضافة إلى التعاون مع المنظمات الدولية، والمنظمات غير الحكومية في جميع أنحاء العالم، بما في ذلك مكتب مكافحة الإرهاب التابع للأمم المتحدة، والاتحاد الأوروبي.[٦]

ثانيا - أهمية مواجهة المحتوى المتطرف العنيف

نُناقش في هذا الجزء أهمية إستراتيجيات المواجهة، التي تحاول جاهدة أن تواكب تغيّر استخدامات الجماعات المتطرفة للإنترنت، وتعمل على الخروج عن المألوف، والتفكير خارج الصندوق، مثلما لجأت بعض الحكومات، في فترة زمنية سابقة، إلى ما أُطلِق عليه آنذاك: المراجعات الفكرية، في محاولة لتصحيح أفكار بعض قادة الجماعات المتطرفة، المؤثرين بدورهم في باقي الأعضاء. وعلى الرغم من أن الحديث عن تلك الفترة، ينصب على العالم الواقعي، إلا أن بعض الدول في الوقت الراهن، حاولت وضع إستراتيجيات، يمكننا أن ندرجها تحت اسم: «النهج الوقائي»، وتهدف تلك الإستراتيجيات، طويلة الأمد، إلى إشراك أفراد المجتمع بقطاعاته كافة، لتحقيق المرونة في التعامل المستقبلي مع الفكر المتطرف.

ولا شك أننا بحاجة لأخذ خطوات استباقية، لمكافحة التطرف العنيف، إلا أن البعض، يخشى من المساس بعدد من الأمور؛ فعمليات حجب وإزالة المحتوى، تحتاج إلى الإدماج الواسع والمتزايد للذكاء الاصطناعي، في الممارسات الرقابية، لحماية أغراض الأمن القومي، وهو الأمر الذي يترجمه بعضهم إلى عدد من المخاوف، ومنها:[٧]

- أن توسيع نطاق استخدام الذكاء الاصطناعي، يمكن أن يتسبب في تهديد لحق المواطن في الخصوصية، وحرية التعبير عن الرأي.
- قد تؤثر عمليات المراقبة من أجل أغراض الشرطة التنبوئية، في حق المواطنين في محاكمة عادلة.

إن إستراتيجيات إزالة المحتوى، والتعامل الأمني والتقني مع المحتوى المتطرف، مهمة للغاية، ولها آثارها الإيجابية، في حجب الكثير من المواد الدعائية، الخاصة بالجماعات المتطرفة المعاصرة، وتأمين قواعد بيانات الدول، وحمايتها من تنفيذ العديد من العمليات الإرهابية. ولكن تلك الإستراتيجيات قصيرة الأمد، تتَّسم ببعض العوار، الناتج عن توسيع نطاق استخدام الذكاء الاصطناعي، الذي يخشى بعضهم، من أن يتسبب في انتهاك بعض من حقوق المواطنين، بالإضافة إلى أن تلك التقنيات، تفتقر إلى الشفافية والدقّة في العمل.

وعلى صعيد آخر، تستغل الجماعات المتطرفة المعاصرة عددًا من التطبيقات، التي تحظى بالقليل من الحظر والرقابة، وميزة الخدمات المجهولة، أو عدم الكشف عن الهوية في أثناء النشر، والحسابات المزيفة، وغيرها من الثغرات؛ فهذه الجماعات لا تتوقف عن استغلال أية فرصة، للنفاذ من خلالها على شبكة الإنترنت. وسيظل الدوران في دوائر مفرغة، ما دام أنَّنا لا نضع حدّا أو فاصلًا لهذه العملية، التي يمكن إبطاؤها عن طريق الثقافة الرقمية المتعمّقة، وبناء القدرات البشرية، وإصلاح المجتمعات، وبخاصة أوضاع الشباب حول العالم، واحتواء أفكارهم وطموحاتهم.

إن الإستراتيجيات الإيجابية طويلة الأمد، هي البديل الأمثل على المدى البعيد، خاصة في ظل التطور المتلاحق لمنصات التواصل الاجتماعي، والبحث المستمر للجماعات المتطرفة عن مخرج، لاستخدام تلك المنصات، بعيدا عن الرقابة، والتعرّض لحذف المحتوى. إن الأمر يتطلب التحول للجمهور المستهدف، والعمل على وضع آليات وإستراتيجيات لحمايته من الأفكار الهدامة، التي لا تبغي تقدّم المجتمعات وتنميتها، بل تعمل على إفسادها، وهي أحد أخطر الآليات الدعائية للجماعات المتطرفة Spoiling، أو إفساد كل ما يدعو للسلام والتنمية، ونهضة المجتمعات، وهو ما ينقلنا إلى مناقشة سياسات المكافحة، التي تبنتها المنظمات الدولية والإقليمية، إدراكًا منها لأهمية اتخاذ التدابير والتشريعات.

ثالثًا - نظرة على بعض سياسات المواجهة

تنقسم جهود مكافحة التطرف العنيف إلى جزأين؛ الجزء الأول: سياسات عامة للمواجهة، والجزء الآخر: سياسات محددة نحو مواجهة التطرف العنيف عبر الإنترنت.

أ- سياسات عامة

- **جهود الأمم المتحدة**

في عام ٢٠٠٦م، تبنّت جميع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة، إستراتيجية مكافحة الإرهاب،[٨] وقد عنيت الإستراتيجية بمكافحة الإرهاب، عن طريق حرمان الإرهابيين من الوصول إلى الوسائل، التي تمكّنهم من شنّ اعتداءاتهم، ومن بلوغ أهدافهم؛ من خلال تنسيق الجهود المبذولة على الصعيدين الدولي والإقليمي، لمكافحة الإرهاب بجميع أشكاله ومظاهره على الإنترنت، ومساعدة الدول على استخدام الإنترنت، كأداة لمكافحة تفشي الإرهاب.[٩] كما اهتمت الإستراتيجية بتناول بناء قدرات الدول التقنية، وتبادل المعلومات، حول المساعدات التقنية في مجال مكافحة الإرهاب.[١٠]

إذا يمكننا القول: إن إستراتيجية الأمم المتحدة، اهتمّت في طيّاتها بجانب مكافحة الإرهاب عبر الإنترنت، وإن

كانت لم تفرد جزءا للأمر في إطار خطة العمل، بل أدرجته في ركائز الإستراتيجية، من زاوية التنسيق بين الدول والمنظمات المختلفة، لمكافحة الإرهاب عبر الإنترنت، وتبادل المعلومات التقنية. ولكن جاءت العبارات في البنود السابقة فضفاضة، غير محكمة، ودونما تحديد لطبيعة الأدوار في هذا الصدد، أو تسمية محددة للمنظمات والجهات المنوط بها التنفيذ.

كما أنشئ مكتب الأمم المتحدة لمكافحة الإرهاب عام ٢٠١٧م، بقرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة، ويعمل المكتب على مساعدة الدول الأعضاء، في تنفيذ إستراتيجية الأمم المتحدة لمكافحة الإرهاب.[١١] وقد أعربت الدول الأعضاء في الاستعراض السادس لإستراتيجية مكافحة الإرهاب،[١٢] عن قلقها إزاء تزايد استخدام الإرهابيين تقنيات المعلومات والاتصالات، وبخاصة شبكة الإنترنت، وغيرها من الوسائط، واستخدام التقنية الحديثة في ارتكاب الأعمال الإرهابية، أو التحريض عليها، أو التجنيد لها، أو تمويلها، أو التخطيط لها.

ومن ثم تبنّت الأمم المتحدة برنامج أمن الفضاء الإلكتروني، الذي يهدف إلى تعزيز قدرات الدول الأعضاء، والمنظمات الخاصة، على منع الهجمات الإلكترونية، التي تقوم بها الجهات الفاعلة الإرهابية، ضد البنية التحتية الحيوية. إضافة إلى تطوير استخدام وسائط التواصل الاجتماعي، لجمع المعلومات من مصادر مفتوحة، والأدلة الرقمية لمكافحة الإرهاب والتطرف العنيف على الإنترنت، في ظل احترام حقوق الإنسان.[١٣]

- **الإستراتيجية العربية لمكافحة الإرهاب**

توصلت الجهود والمشاورات، إلى اتفاقية عربية لمكافحة الإرهاب، وقّعها وزراء الداخلية العرب تحت اسم: «الإستراتيجية العربية لمكافحة الإرهاب». وتشير ديباجة الاتفاقية، إلى أن الدول العربية الموقعة، قد أبرمتها التزاما منها بالمبادئ الأخلاقية والدينية السامية، ولا سيما أحكام الشريعة الإسلامية. وفيما يخص الجزء المتعلق بمكافحة الإرهاب عبر الإنترنت، فقد اهتم المؤتمر العربي الحادي عشر في تونس عام ٢٠٠٨م، بوضع عدد من التوصيات، التي من شأنها أن تُفعِل الإستراتيجية العربية لمكافحة الإرهاب، لمواجهة تطوّر أساليب التنظيمات الإرهابية، من خلال دعوة الجهات المعنية، لسنّ تشريعات خاصة بالاستخدام غير المشروع للإنترنت، والتقنيات الحديثة، وإعطاء مزيد من الاهتمام للدراسات والأبحاث اللازمة، حول الأجيال الجديدة من الجماعات الإرهابية، وما تستخدمه من أدوات وتقنيات حديثة.[١٤]

وفي عام ٢٠٢٣م، أقرَّ ممثلو ١٤ دولة عربية، الخطة التنفيذية للإستراتيجية العربية لمكافحة الإرهاب، والتي تختص بتصميم البرامج التنفيذية لركائز الإستراتيجية، وأوجه المساعدة الفنية، التي سيقدمها مركز الأمم المتحدة لمكافحة الإرهاب، لأنشطة الخطة وبرامجها المختلفة.[١٥]

ب- سياسات محددة نحو مكافحة التطرف العنيف عبر الإنترنت

• جهود الاتحاد الأوروبي

سعى الاتحاد الأوروبي سعيا محدّدا، لإصدار لائحة خاصة بالتصدي لنشر المحتوى الإرهابي على الإنترنت، في أبريل عام ٢٠٢١م، ومن أهم النقاط في هذه اللائحة:[١٦]

- وضع القيود والضوابط، التي تحول دون نشر محتوى إرهابي، ولكن دونما الإخلال بمبادئ حقوق الإنسان، إضافة إلى التأكيد على ضمان حرية التعبير.
- كما تميّزت بوضع إجراءات للتعامل مع المحتوى الإرهابي في نقاط محددة، قابلة للتنفيذ، وفق خطة عمل المؤسسات المعنية. كما تميّزت بوضع إجراءات للتعامل مع المحتوى الإرهابي في نقاط محددة، قابلة للتنفيذ، وفق خطة عمل المؤسسات المعنية؛ فألزمت اللائحة مقدمي خدمات الإنترنت، بحذف المحتوى الإرهابي خلال ساعة من إبلاغها، كما حرصت على توضيح أسباب الحذف لمقدمي خدمة الاستضافة، وتزويدهم بمعلومات عن إجراءات الإزالة، مع التأكيد على فكرة الاحتفاظ بالمحتوى، للاستفادة منه فيما بعد في عمليات التتبع، والرقابة، والتحقيقات.
- اهتمت اللائحة بركيزتين أساسيتين، هما: المتابعة والتنفيذ من ناحية، والتقييم من ناحية أخرى، وذلك انطلاقًا من أهمية العنصرين، كأساس لنجاح السياسات الفاعلة، التي تساعد على التطوير، وتعزز من تطبيق الضوابط واللوائح. وفيما يخص المتابعة والتنفيذ، ألزمت اللائحة المفوضية بحلول ٧ يونيو ٢٠٢٣م، بتقديم تقرير حول تطبيق هذه اللائحة إلى البرلمان الأوروبي، يتضمن معلومات عن رصد مدى الالتزام بتطبيق مواد اللائحة، والأداء بشفافية. أمَّا التقييم بحلول ٧ يونيو ٢٠٢٤م، فيتعيّن على المفوضية إجراء تقييم لهذه اللائحة، وتقديم تقرير إلى البرلمان الأوروبي، بشأن أداء وفاعلية آليات الحماية، ومدى تأثير تطبيق هذا النظام على الحقوق الأساسية، وحماية الأمن العام، على أن يكون التقرير مصحوبًا بمقترحات تشريعية عند الاقتضاء.

وقد انتقدت لائحة الاتحاد الأوروبي، من جهة أنها تعتمد على أدوات غير مفهومة جيدا، للتصدي للمحتوى الإرهابي عبر الإنترنت، وأن عواقب استخدام المواقع والمنصات لهذه الأدوات، قد تؤدي إلى انتهاكات غير مقصودة لحقوق الإنسان،[١٧] وذلك على الرغم من أن اللائحة في مجملها، غلب عليها اتخاذها منحى حقوقيّا واضحا.

كما اهتم الاتحاد الأوروبي بتدبير لائحة الأمن السيبراني؛[١٨] وذلك بهدف وضع تدابير مشتركة للأمن السيبراني، تكون عبر مؤسسات الاتحاد الأوروبي، وهيئاته، ومكاتبه، ووكالاته، ولكي يكون هناك إطار عمل للحوكمة، وإدارة المخاطر والسيطرة عليها، في مجال الأمن السيبراني.

• **جهود منظمة الشرطة الجنائية الدولية**

في إطار التعاون المشترك مع مركز الأمم المتحدة لمكافحة الإرهاب، فقد قام الإنتربول بعمل كُتيب بعنوان Using Internet and : Social Media for Counter-Terrorism Investigations (استخدام الإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي في التحقيقات المتصلة بمكافحة الإرهاب). ويزود الكتيب المحققين بإرشادات عملية، عن أفضل السبل لاستخراج الأدلة الإلكترونية المفيدة للتحقيقات، وجمع وحفظ هذه الأدلة؛ من أجل الإسهام في نجاح التحقيقات والملاحقات القضائية.[١٩]

وتتميّز هذه المساهمة بالشكل العملي أو التطبيقي، في مجال مكافحة استخدام تقنية المعلومات والاتصالات، لأغراض إرهابية؛ حيث أورد هذا العمل أفضل الممارسات، وخبرات الإنتربول في مجال مكافحة الإرهاب، والجرائم الإلكترونية.

فنحن نتحدث في هذا الصدد، عن تسخير التقنية في مكافحة جرائم الإرهاب، وكيفية كشف الأنشطة المتصلة بالإرهاب على الإنترنت، إضافة إلى التعرّف على طرق جمع الأدلة الإلكترونية، خاصة في جرائم الإرهاب العابرة للحدود، ولكن يمكن الاستفادة من هذا الإسهام، في مرحلة مكافحة ما بعد ارتكاب الجرائم الإرهابية على شبكة الإنترنت، وليس في المرحلة القبلية.

• **إستراتيجية أستراليا للأمن السيبراني**[٢٠]

عملت أستراليا على وضع إستراتيجية وطنية للأمن السيبراني عام ٢٠٢٠م، وأدرجت استخدام الجماعات الإرهابية للتقنيات الأساسية بالإنترنت، والحسابات المزيفة على مواقع التواصل الاجتماعي، كأحد عوامل التهديد السيبراني.

وحدّدت الإستراتيجية الإجراءات من جانب فاعلين ثلاثة، هم: الحكومة؛ وعليها أن تحمي المواطنين، وتقوم بتوفير البنية التحتية الأساسية، ومكافحة الجريمة السيبرانية، وحماية البيانات الحكومية والشبكات، وتعزيز قدرات الأمن السيبراني. وتأتي بعدها الشركات العاملة في مجال الأمن السيبراني؛ والمنوط بها تأمين البنية التحتية للمؤسسات الحيوية، وتنمية القوى العاملة في مجال الأمن السيبراني. وأخيرا الأفراد في المجتمع، الذين يجب توعيتهم بكيفية الوصول إلى لمعلومات على الإنترنت، وصولا آمنا، وطرق الإبلاغ عن الجرائم الإلكترونية، وتعريفهم بكيفية الوصول إلى المساعدة والدعم عند الاحتياج.

• **تقرير استخدام الذكاء الاصطناعي لمكافحة الإرهاب على الإنترنت، في جنوب آسيا، وجنوب شرق آسيا.**[٢١]

جاء تقرير «استخدام الذكاء الاصطناعي لمكافحة الإرهاب على الإنترنت، في جنوب آسيا وجنوب شرق آسيا»، كرد فعل على ارتفاع معدلات دمج التقنيات الرقمية في الحياة اليومية، في جنوب آسيا، وجنوب شرق آسيا

في السنوات الأخيرة، خاصة مع استخدام وسائل التواصل الاجتماعي من قِبل سكان المنطقة، استخداما ملحوظا، تجاوز المعدل العالمي.

يضع العمل نظرة شاملة لتطبيق الذكاء الاصطناعي، في مجال مكافحة الإرهاب عبر الإنترنت، شارحًا بعض المصطلحات الأساسية، والتقنيات، والعمليات ذات الصلة بالموضوع، من منظور تقني، مثل: التحليلات التنبوئية للأنشطة الإرهابية، والكشف عن المعلومات الخاطئة والمضللة التي ينشرها الإرهابيون، والإشراف الآلي على المحتوى وإزالته.

رابعا - توصيات مقترحة لمواجهة التطرف العنيف عبر الإنترنت

يمكن تقسيم السياسات المقترحة إلى قسمين:

القسم الأول: يمثّل السياسات طويلة الأمد، ويمكن تسميتها بالسياسات الإيجابية؛ لأنها سياسات معزّزة لمتغيّرات إيجابية في المجتمعات، عبر أكثر من مدخل: تعليمي، وثقافي، وأكاديمي.

القسم الآخر: يعبّر عن السياسات قصيرة الأمد، التي تتّخذ الأجهزة المعنية من خلالها ردود أفعال، نحو المحتوى المتطرف العنيف على الإنترنت؛ سواء بحجب المحتوى، أو تتبعه، أو حذفه، حفاظا على الأمن العام للمجتمعات.

- **السياسات طويلة الأمد «سياسات إيجابية» وتهتم بالأمور الآتية**

أ- سياسات تتخذها المؤسسات التعليمية

- وضع مناهج لمحو الأمية الإعلامية، وتنمية الثقافة الرقمية بما يتناسب مع الأعمار، والمراحل التعليمية المختلفة، مع الاهتمام بتنمية التفكير النقدي والتحليلي، لدى النشء والشباب.
- الاهتمام بتضمين آليات التحقق من المعلومات على شبكة الإنترنت، في مناهج محو الأمية الإعلامية، خاصة وأن الأبواق الدعائية المتطرفة، صارت تعتمد اعتمادا كبيرا على آليات نشر المعلومات المضللة، وخلط الحقائق بالشائعات.

ب- سياسات المؤسسات الإعلامية

- تنمية قدرات الكوادر الإعلامية، حتى تستطيع التعامل مع البيئة الرقمية، وتوظف أدواتها كافة للوصول إلى الجمهور، والتأثير فيه، وحتى تتمكن من اختيار قنوات الاتصال المناسبة، وتكون مؤهلة لصنع محتوى إعلامي مؤثر، يغرس القيم الإيجابية في الأطفال، والنشء، والشباب، بوجه خاص.
- في إطار السياسات الإعلامية للدول والمنظمات، يجب الاهتمام اهتماما أوسع بإنشاء مراكز للتحقق من المعلومات والبيانات، Fact Checkers حتى تصبح ظهيرا أساسيّا للقائمين على

العمل الإعلامي، يتحققون فيه من المعلومات والبيانات قبل النشر؛ للحفاظ على الأمن العام للمجتمعات، ودرءا للآثار السلبية لآليات الدعاية المتطرفة العنيفة.

- تفعيل حملات توعوية للإعلام بآليات الإبلاغ عن المحتوى المتطرف العنيف، على المواقع والمنصات. وذلك على غرار حملات توعية «ACT» Action counters terrorism ببريطانيا، والتي تستهدف توعية المواطنين بكيفية الإبلاغ عن المحتوى العنيف.[٢٢]

ج- سياسات المؤسسات الأكاديمية

- إنشاء برامج بحثية، بغرض إجراء مسوح على عينات قومية داخل المجتمعات، على فترات زمنية محددة؛ لقياس مدى نجاح الدعاية المتطرفة العنيفة في توظيف الإنترنت، للوصول إلى الجماهير، بالإضافة إلى تحليل المحتوى الإرهابي المنشور على الإنترنت، تحليلًا دوريّا؛ لمعرفة المضامين التي تُصدَّر إلى المجتمعات، وللتمكّن من قياس مردود وتأثير هذه المواد الإعلامية.

- **السياسات قصيرة الأمد**

ونعني بها سياسات الحجب، وإزالة المحتوى، وردع منتجي المحتوى المتطرف العنيف لمنع انتشاره؛ بغرض حماية الأمن العام، وذلك من خلال عدد من الآليات:

- وضع تدابير تشريعية وقانونية منضبطة، وملمة بالتقنيات والتطبيقات الحديثة، التي تعمل على تنقية المحتوى على الإنترنت، وحجبه، وإزالته، وتتبع صانع المحتوى.
- من الناحية التجريبية لمشاركة Google وFacebook وTwitter في مكافحة الإرهاب والمحتوى المتطرف العنيف، تفيد الدراسات، بأن هذه الشركات، تنتقل من الموقف التفاعلي، إلى موقف استباقي، بأسلوب متزايد، بل ويظهرون التزاما بالتنظيم الذاتي، والإبداع في تطوير وتنفيذ نظم مكافحة الإرهاب على الإنترنت، وهو ما يشير إلى منطق جديد للحوكمة في مجالات سياسة مكافحة الإرهاب؛ فقد أصبحت شركات المنصات، حلقة أساسية في مكافحة المحتوى الإرهابي على الإنترنت.[٢٣]
- ولذا يجب وضع مزيد من السياسات التشاركية، مع شركات مقدمي الخدمات، خاصة مع قدوم منصات جديدة كالميتافيرس، والتي تتطلب قدرات هائلة على تحديد المحتوى الضار، وقد أعلنت بالفعل شركة Meta بأنها طورت حاسوبًا عملاقًا، سيكون واحدا من أسرع الأجهزة الخارقة للذكاء الاصطناعي في العالم.[٢٤]

الخاتمة

«بالبنادق يمكنك قتل الإرهابيين، ولكن بالتعليم يمكنك قتل الإرهاب ذاته»، هذه العبارة للناشطة الباكستانية ملالا يوسفزاي، يمكن لها أن تلخص أهمية غرس القيم الإيجابية من خلال المؤسسات التعليمية والتثقيفية، كما توضح ضرورة اتباع السياسات الإيجابية، في مواجهة الفكر المتطرف العنيف. وهو ما تؤكده الورقة في اقتراحها للسياسات المناسبة، لمكافحة الجماعات المتطرفة عبر الإنترنت؛ فالسياسات الإيجابية طويلة الأمد، تستثمر بالأساس في العنصر البشري، وتعمل على دراسة احتياجاته دراسة مستمرة.

يبدأ اعتناق الأفكار المتطرفة بمرحلة الوعي، والمعرفة بتلك الأفكار، ثم تأتي مرحلة الاهتمام بها، وأخيرا قبولها، والشروع في تنفيذها،[٢٥] وهنا يجب على واضعي السياسات، أن يتدخلوا بخطط عمل في مرحلتي المعرفة والاهتمام، حتى لا نصل إلى مرحلة القبول والتنفيذ؛ فالتوعية بخطورة الأفكار المقدمة عبر شبكة الإنترنت، والتعامل الآمن مع البيئة الرقمية، هو حجر الزاوية في سياسات المكافحة الإيجابية، إضافة إلى تعزيز قيم التسامح وتقبل الآخر، واتباع النهج التشاركي مع المؤسسات الإعلامية، ومنظمات المجتمع المدني، وشركات مقدمي الخدمات عبر الإنترنت.

الهوامش والإحالات

(1) Maura Conway, "Determining the Role of the Internet in Violent Extremism and Terrorism: Six Suggestions for Progressing Research," *Studies in Conflict & Terrorism*, 40:1, 2017, 77-98.

(2) Paul Cruickshank and Mohannad Hage Ali, "Abu Musab Al Suri: Architect of the New Al Qaeda," *Studies in Conflict & Terrorism*, 30:1, 2007, 1-14.

(3) Olivia Bamsey and Reza Montasari, "The Role of the Internet in Radicalisation to Violent Extremism," in *Digital Transformation in Policing: The Promise, Perils and Solutions* (Cham: Springer International Publishing, 2023), 119-135.

(4) Facebook, "Partnering to Help Curb Spread of Online Terrorist Content," *Facebook News*, December 5, 2016, https:// newsroom.fb.com/news/2016/12/partnering-to-help-curb-spread-of-online-terrorist-content/.

(5) GIFCT, "Global Internet Forum to Counter Terrorism: an Update on our Efforts to Use Technology, Support Smaller Companies and Fund Research to Fight Terrorism Online," *Global Internet Forum to Counter Terrorism Press*, June 18, 2018, https://gifct.org/2018/06/18/global-internet-forum-to-counter-terrorism-an-update-on-our-efforts-to-use-technology-support-smaller-companies-and-fund-research-to-fight-terrorism-online/.

(6) GIFCT, "Global Internet Forum to Counter Terrorism: an Update on our Efforts to use Technology, Support Smaller Companies and Fund Research to Fight Terrorism Online".

(7) Océane Dieu and Reza Montasari, "How States' Recourse to Artificial Intelligence for National Security Purposes Threatens Our Most Fundamental Rights," in *Artificial Intelligence and National Security*, (Cham: Springer International Publishing, 2022),19-45.

(٨) الأمم المتحدة، «استراتيجية الأمم المتحدة العالمية لمكافحة الإرهاب،» (جنيف، الأمم المتحدة، ٢٠٠٦م)، https://www.un.org/counterterrorism/ar/un-global-counter-terrorism-strategy.

(٩) الأمم المتحدة، «استراتيجية الأمم المتحدة العالمية لمكافحة الإرهاب».

(١٠) الأمم المتحدة، «إستراتيجية الأمم المتحدة العالمية ...».

(١١) الأمم المتحدة، «قرار اتخذته الجمعية العامة في ١٥ حزيران/يونيه ٢٠١٧،» (جنيف، الأمم المتحدة، ٢٠١٧م)، https://documents-dds-ny.un.org/doc/UNDOC/GEN/N17/172/56/PDF/N1717256.pdf?OpenElement.

(١٢) الأمم المتحدة، «قرار اتخذته الجمعية العامة في ٢٦ حزيران/يونيو ٢٠١٨،» (جنيف، الأمم المتحدة، ٢٠١٨م)، https://documents-dds-ny.un.org/doc/UNDOC/GEN/N18/198/78/PDF/N1819878.pdf?OpenElement.

(13) Un, .https://www.un.org/counterterrorism/ar/cct/programme-projects/cybersecurity.

(١٤) مكتب الأمم المتحدة للمخدرات والجريمة، «دراسات حول تشريعات مكافحة الإرهاب في دول الخليج العربية واليمن،» (نيويورك: الأمم المتحدة، ٢٠٠٩م)، https://www.unodc.org/documents/terrorism/Publications/Study_CT_Legislation_Gulf_Yemen/Arabic.pdf.

(١٥) «ممثلو ١٤ دولة عربية يرفعون مشروع الخطة التنفيذية لإستراتيجية مكافحة الإرهاب إلى مجلس وزراء الداخلية العرب لإقراره،» جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، (١، فبراير، ٢٠٢٣م)، https://nauss.edu.sa/ar-sa/news/Pages/1-2-2023.aspx.

(16) European Parliament, *Council of the European Union, Regulation (EU) 2021/784 of the European Parliament and of the Council of 29 April 2021 on Addressing the Dissemination of Terrorist Content Online* (Brussels: EU, 2021), https://eur-lex.europa.eu/eli/reg/2021/784/oj.

(17) Center for Democracy and Technology, *Open Letter to the European Parliament* (Washington, D.C: CDT, 2019), https://cdt.org/files/2019/02/Civil-Society-Letter-to-European-Parliament-on-Terrorism-Database.pdf.

(18) European Commission, *Proposal for a Regulation Of The European Parliament And Of The Council: Laying Down Measures for a High Common Level of Cybersecurity at the Institutions, Bodies, Offices and Agencies of the Union* (Brussels: European Commission, 2022), https://commission.europa.eu/system/files/2022-03/proposal_for_a_regulation_laying_down_measures_on_cybersecurity_at_euibas.pdf

(19) Interpol and UN, *Launch of the 2nd Edition of the INTERPOL-UNOCT Handbook on Using the Internet and Social Media for Counter-Terrorism Investigations* (Lyon: Interpol and UN, 2021), https://www.interpol.int/en/Crimes/Terrorism/Analysing-social-media, https://www.un.org/counterterrorism/sites/www.un.org.counterterrorism/files/211122_interpol_remarks_interpol_handbook_launch.pdf.

(20) Australian Governmen Department of Home Affairs, *Australia's Cyber Security Strategy 2020* (Canberra: Australian Governmen Department of Home Affairs, 2020), https://www.homeaffairs.gov.au/cyber-security-subsite/files/cyber-security-strategy-2020.pdf.

(21) Unicri, *Countering Terrorism Online with Artificial Intelligence: An Overview for Law Enforcement and Counter-Terrorism Agencies in South Asia and South-East Asia* (New York: Unicri, 2021), https://unicri.it/News/-Countering-Terrorism-Online-with-Artificial-Intelligence.

(22) "Report Suspicious Activity," *Action Counters Terrorism "ACT"*, November 20, 2023, https://act.campaign.gov.uk.

(23) Marguerite Borelli, "Social Media Corporations as Actors of Counter-Terrorism," *New Media & Society*, 25:11,2023, 2877-2897, https://doi.org/10.1177/14614448211035121.

(24) Ashleigh Hollowell, "Meta's RSC Supercomputer Brings Revolutionary Power — and Privacy and Bias Concerns," *Venture Beat*, February 16, 2022, https://venturebeat.com/ai/metas-rsc-supercomputer-brings-revolutionary-power-and-privacy-and-bias-concerns/.

(25) Scott Helfstein, *Edges of Radicalization: Ideas, Individuals and Networks in Violent Extremism* (New York: The Combating Terrorism Center at West Point, 2012), 1-74, https://ctc.westpoint.edu/wp-content/uploads/2012/06/CTC_EdgesofRadicalization.pdf.

الدولة في إفريقيا بين هشاشة التنمية والتهديدات الأمنية

د. ميلود عامر حاج، المدرسة الوطنية العليا للعلوم السياسية الجزائر ٣، الجزائر.

عكفت هيئة الأمم المتحدة من خلال أجهزتها المتخصصة على القارة الإفريقية، ضمن تنامي عدد الدول الإفريقية، الآخذة في النزاعات الحدودية، والحروب الأهلية، نظرًا لقلّة التجربة، وانعدام الخبرة الدولاتية Statism من جهة، وضعف البناء المؤسساتي القاضي بالتخلي عنها، ما جعل من أعمال المنظّمة الدولية التركيز على القارة السمراء، قصد تحقيق السلم والأمن الدوليين من جهة ثانية. يتأتى ذلك في إطار الصراعات المتفاقمة، ضمن تحقيق التنمية الاقتصادية، من خلال الحد من مظاهر الفقر والفاقة والبطالة في المجتمعات الإفريقية. إلا أن هذا التصور يبقى نسبيًّا، دون توافر كامل الشروط والآليات، من قبل الدول الإفريقية الحديثة الاستقلال مؤخرًا، في مجتمعات تسودها القبلية، والمناطقية، والطائفية، والعشائرية، وغيرها من الظواهر السوسيولوجية المؤثرة في القرار السياسي من ناحية، وعدم بروز المعطى الاقتصادي، من خلال توفير مناصب الشغل، بالحد من الهجرة غير الشرعية، ضمن البناء المؤسساتي القاضي بتفعيل نشاطات الدولة، وأهميتها في المجتمع الإفريقي من ناحية أخرى. وبالموازاة، فإنه يمكن القول: إن هناك جدلية غير مستوفاة الشروط، عند ربط الدولة الإفريقية؛ وذلك سواء بالتنمية، أو بالأمن وتهديداته المختلفة والمتنوعة، ممّا حال دون سيطرتها على الوضع العام، بسبب عدّة فواعل، وعديد العوامل المتقاطعة والمتفرعة، التي حالت دون بلوغ الدولة الإفريقية المكانة الأساسية، في القيام بواجباتها القانونية، والدستورية، والإدارية، والسياسية، والاقتصادية، والأمنية، كدولة وظائفية، وليس فاشلة أو هشة أو ضعيفة... إلخ. تحاول هذه الورقة البحثية أن تتناول عرض هشاشة الدولة من موقع التنمية، التي لم يحسن الاعتناء بها، وآثار ذلك على التهديدات الأمنية، في ظل الفترة الحالية، بطرح هذه الإشكالية: ما طبيعة هشاشة الدولة الإفريقية، في ظل تحقيق كل من التنمية والأمن معًا؟ وسنحاول الإجابة عن هذا السؤال، من خلال المحاور الآتية:

١- تعريف الدولة الهشة

تنفرد الدولة الإفريقية بالهشاشة، لتصبح حينها دولة هشة Fragile State والتي تعد من أكثر المصطلحات شيوعًا؛ سواء على المستوى الوطني أو الدولي. ولئن كان مصطلح الدولة الهشة هذا، يحمل العديد من الرموز والدلالات، فإنه متقاطع في الوصف والمعاني، سواء أتعلق الأمر بالمنظور الأكاديمي المحض، أو الإعلامي المستهلك، كونه مصطلحًا مركبًا؛ إذ يعبّر عن أوجه عدّة، منها سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وإنسانية، لوصف حالة الهشاشة Fragility التي تعانيها دولة ما.[١]

إنه مصطلح قاس، وذو فهم محدود لدى الدولة الإفريقية المستحدثة استقلالًا، والتي ليس لديها من الإمكانات والقدرات في مواجهة المشكلات المجتمعية المتنوعة المطروحة عليها. وبالفعل، فإن هناك من الملاحظين والمراقبين الدوليين، بالرغم من أنهم يتحفظون على مصطلح الهشاشة، من منطلق الدولة، كأساس للتعامل مع مجتمعها الأصلي، وباقي الدول الأخرى؛ إلَّا أن مصطلح الهشاشة، بات هو مقياسًا للتخلّف الداخلي، والتبعية الخارجية. ومن هذا المنظور، فقد قِيس هذا الوضع الهش بالهشاشة، بحيث تؤكد المؤسسات الدولية ذاتها، كونه له خفايا وخلفيات أيديولوجية، بل سياق جيواستراتيجي في التعامل مع قضايا الدولة وإشكالياتها، في ظل الضعف السياسي، والتخلف الاقتصادي، اللذين يقومان عليهما.

تعدّ الدولة في إفريقيا هشّة ورخوة، لدرجة أنها لم تفِ بالقيام بمهامّها القانونية، والسياسية، والإدارية، بحكم تربّعها على قواعد وأصول محدودة؛ إذ لا تسمح لها بتجاوز ضعفها البنيوي، الذي يقوم على القبيلة والفساد. الأمر الذي غيّب عن مفهوم الدولة الهشة الفرصة السانحة، للقيام بدورها المنوط بما يؤهلها في تخطي العقبات والعراقيل، التي حالت دون بلوغ مستواها، قصد تحقيق مقاصدها. وهو ما يدفع إلى القول، بأن عجز الدولة الوظيفي، يعد أهم مشكل على الإطلاق، وقد خلّف وراءه عددًا من المشكلات، التي امتدَّت إلى المستوى الإقليمي، وحتى الدولي. وإذا كانت قضايا الحكم هي أساس ضعف الدولة الإفريقية، وأحد مؤشراتها بامتياز، بحسب المشكلات البيروقراطية والإدارية والتسييرية، فإن ذلك يعود إلى جملة من التناقضات، نتيجة بروز بعض المؤشرات، ومنها:[٢]

- **المؤشرات الاقتصادية**

١. التدهور الاقتصادي والفقر ٢. التنمية الاقتصادية غير المتكافئة ٣. رحلة الإنسان، واستنزاف الأدمغة.

- **المؤشرات السياسية**

١. شرعية الدولة ٢. الخدمات العامة ٣. حقوق الإنسان وسيادة الدولة.

- **المؤشرات الاجتماعية**

١. الضغوط الديمغرافية ٢. اللاجئون والمشردون داخليًّا ٣. التدخل الأجنبي.

ويعود تداول مصطلح الهشاشة Fragility إلى استعماله من قبل المؤسسات الدولية، على اعتبار أن ما تواجهه منطقتا شرقي إفريقيا، والقرن الإفريقي -مثلًا- يكمن في الآتي:[٣]

١- ضعف الدول والحكومات التي تفتقر إلى السلطة والمشروعية؛ وهذا أدّى إلى ضعف التنظيم الأمني.

٢- الضعف البيئي والصحي، الذي فاقم عجز الدول والمجتمعات عن إنتاج الغذاء، وسبل العيش المادي الأخرى.

٣- انتشار الجماعات الخارجة عن القانون، والجماعات المهمشة، والمعرضة للتقلبات المناخية، والعنف المجتمعي والأهلي، وإهمال الدولة.٤. سهولة التأثر بالشبكات الإرهابية، والإجرامية الدولية.

كما تقوم هشاشة الدولة، أو الدولة الهشة، على جملة من الاعتبارات الموضوعية، والخصوصيات المنطقية، ذات الصلة بهذا المنحى؛(*) فهل الهشاشة ظاهرة أو سياق؟ تعدّ الهشاشة بمثابة وضع مجتمعي، يشترك فيه العديد من الفواعل، وعلى رأسها الدولة، ضمن ما تعانيه من أزمات معاناة مستمرة، والتي توجب تدخلًا أو تدخلات بنيوية، قد تستغرق فترات طويلة، ومراحل زمنية، وعلى مدار أجيال، من خلال تفعيل ،،تنمية الأمن وأمننة التنمية،، في قطاعات عدّة ومختلفة، ضمن رقعة جغرافية، تنتمي إليها الدولة الهشة.

أ. مؤشرات الهشاشة

أصدر صندوق السلام العالمي عام ٢٠٠٥م تقريرًا سنويًّا في مجلة السياسة الخارجية الأمريكية للدول الفاشلة؛ إلا أنه روِّج لهذا المصطلح، ولأول مرة منذ عام ٢٠١٤م، بدل مصطلح الدول الفاشلة، ضمن ما تحمله الهشاشة من أبعاد وتداعيات، تمسّ الجوانب الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. ومن بين ما تعرفه الدولة الهشة في هذا الصدد، هو تلك الخصوصيات التي تنفرد بها ضمن الآتي:[٥]

١. العنف٢. العدالة ٣. المؤسسات ٤. الأسس الاقتصادية ٥. القدرة على الصمود في مواجهة الكوارث والأزمات.

ما زالت صعوبة الهشاشة تدفع بالدولة في إفريقيا نحو مسارات ومدارات ذات تكلفة باهظة؛ الأمر الذي قلّل من نصيب الاستقرار السياسي، والنمو الاقتصادي لديها. ويبدو أن تكاليف الهشاشة لا تعير اهتمامًا للحدود الوطنية؛ فالبلدان الهشة، هي «جيران سوء»، كما تصفها مختلف التقارير الدولية؛ ومن الممكن أن تصل الخسائر الناجمة من تأثير جار السوء إلى نحو ٢٣٧ مليار دولار سنويًّا. ولا يبدو أن الهشاشة تنتقل بالعدوى؛ لكنّها تحدث آثارًا سلبية عبر الحدود، مثل: تعرض الدول المجاورة لحروب أهلية، أو الدخول في الاضطرابات، وعدم الاستقرار السياسي. ولا يوجد أي دليل على أن الهشاشة تؤدي إلى زيادة منتظمة في احتمال التعرض لحروب مع دول أخرى، إلا أن هناك حالات معروفة، لعب فيها هذا الأثر دورًا، مثل: حكومة تشارلز تايلور في ليبيريا، والتي قدمت المرتزقة والأموال والأسلحة والبنى التحتية، للجماعات المتمردة في سيراليون، أملًا في تحقيق السيطرة على مناجم الماس الإقليمية، والشبكات الاقتصادية في المنطقة.[٦]

٢- حدود التنمية في إفريقيا

تمرّ الدولة في إفريقيا بمرحلة صعبة وخطيرة؛ إذ لم تسمح لها بتحقيق الاستقرار السياسي، إلا القليل منه، في ظل ما لم تحققه اقتصاديًّا؛ بحيث لا يمكن تحقيق الأمن دون التنمية، أو التنمية خارج الأمن؛ فكلاهما إذن ضروريان لدى الدولة الواحدة، بحيث تشكل التنمية كتعريف سهل وواضح، كونها عملية تطوير لقدرات الاقتصاد والمجتمع، لتمكّنه من توفير القوى البشرية، والموارد المادية والمالية، لتعزيز الإنتاج الاقتصادي؛ ممّا يسمح بضمان مستوى لائق من المعيشة للمواطنين، في إطار من الأمن.[٧]

بيد أن التخلُّف في الحالة الإفريقية هو المسيطر، مقابل غياب التنمية الفعلية المقرونة بالأمن. واللافت للنظر، هو أن التنمية تتأثر بالاقتصاد، والاقتصاد يؤثر فيها لدرجة تفادي التبعية للخارج، من خلال مداخله عبر (الدخل الفردي، والدخل القومي الإجمالي). إلا أن هذا التصوّر على النقيض من ذلك، فلم تعد رغبة الدول كاملة، كونه يتوافر على شروط وآليات، للنهوض بالوضع الاقتصادي والاجتماعي، على غرار الوضع السياسي منه. ويمكن التمييز بين ثلاثة منظورات، عند مقارنة العلاقة بين الأمن والتنمية، المنظور الأول: ينطلق من فرضية مفادها، أن التنمية متغيّر مستقل، أمَّا الأمن فهو متغيّر تابع، وهذا يعني أن الأمن لا يمكن أن يتحقق إلا بتوفير عدد من الشروط: الاقتصادية، والصحية، والبيئية، إلى جانب الغذاء، وهذا ما تبنّاه البرنامج الغذائي لسنة ١٩٩٤م. أمَّا المنظور الثاني: فيرى أن الأمن شرط أساس في تحقيق التنمية؛ فالأمن متغيّر مستقل، والتنمية متغيّر تابع. وأمَّا المنظور الثالث: فيرى أن العلاقة بين الأمن والتنمية علاقة تداخل وتشابك، كما أن العلاقة السببية بينهما متبادلة؛ فالتنمية يمكن النظر إليها كمطلب لتحقيق الأمن، كما يمكن النظر إليها كنتيجة، لتحقيق سياسات الأمن.[٨]

وفي ضوء هذه المعطيات الأولية، تعاني القارة السمراء -حسب الأرقام- الفقر، والبطالة، والجوع، وخاصة الصراعات، التي هي الأكثر عرضة لانعدام الأمن الاقتصادي، لا سيما الأمن الغذائي. إذ ليس من السهل إنشاء علاقة سببية، ولكن حالات عدم الاستقرار السياسي، غالبًا ما تؤدي إلى انعدام الأمن الاقتصادي. وتعدّ الصراعات والانهيارات الاقتصادية، وراء أكثر من ثلث حالات الطوارئ الغذائية بين عامي ١٩٩٥ و٢٠٠٣م، في حين تعد الحروب الأهلية، وحالات اللجوء والنزوح الداخلي، السبب الرئيس، لأكثر من نصف حالات الطوارئ الغذائية في إفريقيا. وفي العادة، تؤدي الصراعات إلى تخفيض الإنتاج الزراعي، والعائد من المحاصيل النقدية والمواشي. ووفقًا لمنظمة الأغذية والزراعة، فإن الصراعات قد ألحقت بإفريقيا خسائر في الإنتاج الزراعي، تزيد قيمتها على أكثر من ١٢٠ مليار دولار، في الثلث الأخير من القرن العشرين. وقد تراجع الإنتاج الغذائي في ١٣ دولة من إمكاناتها في مجالات الزراعة، والبنية التحتية، والاتصالات، خلال حربها الأهلية، التي استمرت ٢٠ عامًا.[٩]

من الصعب -إذن- ربط التنمية بموضوع السياسات الاقتصادية في الحالة الإفريقية، خاصة في ظل المتّبع من النظام السياسي والاجتماعي السائد، بحيث إن هذه البيئة الشاذة ما زالت تقبع تحت هشاشة الدولة في إفريقيا. هذا ما لم يجعل هذه الأخيرة تبلغ المستوى المطلوب، نحو تحقيق التنمية المرجوة. وإذا كانت الدولة الهشة لم تف بوعودها السياسية، في تحقيق التنمية الفعلية، فإن ذلك يعود إلى تفادي الوقوع في المغالطات المضللة، التي أولتها بيانات البنك الدولي اهتمامًا كبيرًا. وبناءً على هذه الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ذات الصلة، بحكم ما له من علاقة بالاقتصاد، ومختلف القطاعات في ٥٣ دولة إفريقية من جهة، ومعرفة منسوب التنمية ضمن المؤشرات والبيانات الدولية الرسمية، لمتابعة تطوّر السياسات لدى الدول الإفريقية، من جهة أخرى.

ومن بين ما تواجهه التنمية في السنوات الأخيرة، في عديد الدول الإفريقية؛ تحديات بالغة الخطورة، ومنها: نصيب الفرد من إجمالي الدخل القومي؛ ففي أغنى بلدان إفريقيا جنوب الصحراء، يزيد ٨٣ -مثلًا- على نصيب الفرد من إجمالي الدخل القومي، في أشد بلدان المنطقة فقرًا؛ فنيجيريا من أكبر بلدان إفريقيا جنوب الصحراء من حيث عدد السكان (١٥٤,٧ مليون نسمة)، وهي تضم ١٨٪ من مجموع سكان القارة؛ فإن معدل الهواتف المحمولة في سيشل يبلغ ١٠٤٩ هاتفًا لكل ألف شخص، مقابل ٢٨ هاتفًا لكل ألف شخص في إريتريا. وهما بذلك يمثلان أعلى وأقل بلدان المنطقة، من حيث انتشار الهواتف المحمولة لكل ألف شخص. وفي إفريقيا جنوب الصحراء، لا يتوفر الصرف الصحي المحسن إلا لنحو ٢٤٪ من سكان الريف، مقابل ٤٢٪ من سكان الحضر؛ في الفترة بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٩م، وقد أحرزت رواندا وأوغندا أكبر مكاسب في متوسط العمر المتوقع عند الولادة، بزيادة ٨ سنوات و٧ سنوات على التوالي...[١٠].

أ. علاقة الدولة الهشة بالتنمية

تكمن محددات التنمية في ضوء الدولة الهشة على أنَّها غير كاملة الأركان، بل معتلَّة الأطراف، وناقصة الشروط، بسبب غياب الأطر والأنساق، التي تحكمها من داخلها، وعلاقتها بخارجها، الأمر الذي جعلها لم تتطور، بل لم ترتق قط ضمن هذه السياقات، سواء أكانت محلية أو وطنية، أو إقليمية أو دولية أو عالمية. فما طبيعة التنمية الموجودة في إفريقيا؟ وكيف يمكن قياسها في ضوء المشروعات الحكومية، والسياسات الاقتصادية المتبعة؟ أسئلة جوهرية، وأخرى متفرعة عنها، بحيث من الصعب التوقف عندها كاملة، أو التعرض لها جملة، وبأدق التفاصيل، كونها تهم قارة كاملة أولًا، كما أن في اختلاف الدول وتشكلاتها السياسية غير الواضح المعنى والمدلول ثانيًا، وصعوبة الاقتصاد الإفريقي السائد والمتقلب بالرغم من ثرائه ثالثًا؛ فالكل – إذن – جعل من التنمية عمومًا ألَّا ترتقي إلى درجة النمو، في بعث دينامية سوسيو- اقتصادية واضحة المعالم، بل ذات أهمية كبرى؛ إذ يمكنها دخول السوق العالمية التنافسية، مقارنة بباقي القارات الأخرى.

ما مردّ ذلك؟ وهل الأمر يعود إلى عدم تماسك الاقتصاد بالسياسة (الاقتصاد السياسي) في إطار الدولة الهشة، أم أن المجتمعات الإفريقية ما زال ينقصها عبر النخب، والمؤسسات، والقوانين، والثقافة السياسية السائدة، مواجهة مثل هذه التحديات الصعبة والخطيرة، التي لم تجعلها في المستوى المقبول؟ وتقدّم إفريقيا اليوم، شأنها في ذلك شأن غيرها من أنحاء العالم، صورة دينامية، ولكنها متناقضة، للتقدم المحرز، والتحديات الكامنة؛ فمن ناحية، تخطّى النمو الاقتصادي في عدّة بلدان إفريقية نظيره في أنحاء أخرى من العالم، وثمة بيانات مشجعة، تشير إلى أن نسبة الالتحاق بالتعليم الابتدائي في إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، شهدت تحسّنًا هائلًا؛ فقد ارتفعت من ٥٢٪ عام ١٩٩٠، إلى ٨٠٪ عام ٢٠١٥م، في حين أن معدلات وفيات الأطفال قد شهدت انخفاضًا كبيرًا؛ إلا أن بعض مناطق إفريقيا تواجه تهديدات وتحدّيات، تنطوي على العنف الطويل الأمد، وانعدام الأمن البشري، اللذين يقوّضان التنمية، وقد ترتّب على استمرار النزاع أن ثلاثة من البلدان الأربعة التي تواجه حاليًّا تهديدًا خطيرًا بالمجاعة، تقع في إفريقيا.[١١]

٣- التهديدات الأمنية في إفريقيا

من بين ما تعانيه الدولة في إفريقيا، هو المعضلة الأمنية، التي أصبحت تنال منها، بالرغم من هشاشتها؛ إن لم تكن نتاجًا لها تباعًا [١٢]، الأمر الذي ما زال مقرونًا بالتهديدات الأمنية، سواء أكانت تقليدية أو جديدة. ويشير صندوق السلام عام ٢٠٢١م، كمؤسسة فكرية أمريكية، بأنه يوجد نحو ١٥ دولة هشة حول العالم، بيد أن ما تعانيه الدول الإفريقية داخليًّا، مثل غياب التنمية، وهشاشة السلام، وكثرة التطرف، وتفشي الأمراض، لا يمكن معالجته خارجيًّا، بالرغم من أنّه لا يمكن إنكار الدور الذي تلعبه الأمم المتحدة في إفريقيا، وخاصة في مجالات الأمن والتنمية، ولكن هناك حاجة دائمة لتطوير هذا الدور، وخاصة في ظل الأزمات التي تعانيها القارة، وانعكاساتها على المصالح الدولية.[١٣]

ما هو مطروح بخصوص المعضلة الأمنية في إفريقيا، كونها ما زالت «مركبة»، بحكم أن العديد من العوامل الداخلية ما زالت تدفع بها نحو التعقيد، وعدم وضوح الرؤية، في ظل تنامي التهديدات اللاتماثلية والهجينة. كما تواجه القارة الإفريقية نشاطًا كبيرًا لجماعات العنف والتطرف، في دوائرها الجيوسياسية المختلفة، نتيجة لمجموعة من العوامل، والتي يمكن الإشارة إلى أبرزها، أولًا: التدفقات غير المشروعة للأسلحة عبر الحدود، ثانيًا: تهريب المهاجرين غير الشرعيين والاتّجار بالبشر، ثالثًا: اتساع نشاط شبكات الجريمة المنظمة العابرة للحدود[١٤]. فلا يزال الأمن – إذن – يطرح جملة من التساؤلات، التي لطالما كانت، وستظل مهددة للاستقرار في المنطقة، بسبب عدم توافر جملة من الشروط، التي تعود في الأصل إلى الدولة الهشة، من خلال تردي منسوب التنمية لديها، والذي تقاعس في ضوء المؤشرات والمعطيات، التي تقوم عليها من

ناحية، وتداعيات عدم الاستقرار على دول العالم من ناحية أخرى. وفضلًا عمَّا سبق، فلا يزال المأزق الأمني القديم مرتكزًا على العنف السياسي، خاصة في ظل التوافر الجاهز للأسلحة الصغيرة والخفيفة؛ إذ تتردد مشكلات الحكم، لا سيما الانقلابات والتمردات، على قوس واسع من دول القارة. ذلك أن العسكرة هي سمة مشتركة للحكم الإفريقي؛ حيث يقاتل الحكام وشاغلو المناصب للبقاء في السلطة، ويحارب المعارضون للاستيلاء على السلطة؛ فقد شهدت دول مثل نيجيريا، وغانا، وجمهورية إفريقيا الوسطى، أكثر من خمسة انقلابات. على أن التمرد ضد الحكومة، لا يفسر بالصراع على الحكم فحسب، وإنما كذلك بالصراع على الموارد؛ إذ قد يرجع إلى حرمان مجموعات الأقليات بأسلوب منهجي من الوصول إلى السلطة، وإلى الشبكات الاقتصادية على السواء، فلا يزال التمرد ضد الحكومة نوعًا من النضال، من أجل الوصول إلى وسائل بقاء الفرد والجماعة، في إطار ما عبِّر عنه بـ«سياسة البطن»، ومن شواهد هذا القول حركات التمرد المسلحة ضد الحكومات، في كل من الكونغو، ورواندا، وأوغندا، وزيمبابوي، وليبيريا، وسيراليون، والسودان؛ حيث ورثت هذه الدول بنية الإدارة الاستعمارية، المهورة بالسيطرة على الأرض، وعلى الاستخراج، بدلًا من الحكم والسيطرة على السكان، ولذلك تزداد احتمالية النزاعات الداخلية المتعلقة بالموارد، في ظل حكومات مركزية ضعيفة ومنقسمة؛ حيث إن غياب المؤسسات التنظيمية القوية، هو ما يجعل المنافسة على الموارد تتطور إلى صراع. والمشكل أن الوصول إلى الموارد، هو ما يساعد على تمديد الحروب، بحيث تغير دوافع الصراع من المظالم إلى الجشع؛ فعندما تكون الموارد قابلة للنهب، تميل إلى صراع عنيف، ولهذا يلاحظ أن النزاعات في المناطق الغنية بالموارد، تميل إلى أن تطول، أكثر من المناطق التي يعتمد فيها المقاتلون على المساعدات الخارجية، أو الدعم المحلي[١٥].

ومن بين المشكلات المطروحة في الواجهة الأمنية في إفريقيا هو ارتفاع حدة النزاعات الداخلية، ذات الصلة بالأبعاد الإثنية، والعرقية، والدينية، والطائفية، واللغوية، والهوياتية، والمناطقية، والجهوية، والزبائنية، والحدودية، وغيرها. وهذه الأخيرة، موروثة عن الحقبة الاستعمارية، الأمر الذي أجبر النظم السياسية على البقاء في مواجهة مثل هذه التهديدات، بالاعتماد على الميليشيات، بدل الجيوش النظامية، خاصة بعدما فشلت الدولة في تسييرها. ومن بين النزاعات العنيفة في العالم، هي تلك التي تشمل حالات عدة في القارة الإفريقية، خاصة في غربي إفريقيا، والساحل الإفريقي، وليبيا، والسودان، وحالات أخرى في القرن الإفريقي، منها كالصومال، والبحيرات الوسطى، وسيراليون، وليبيريا، والغابون، وغينيا بيساو، ونيجيريا، وكوت ديفوار، والكونغو، والتي أثرت فيها القضايا الأمنية على تكوين الدولة الوطنية في إفريقيا.

الخاتمة

ما يمكن قوله في السياق الإفريقي، وهو أن الدولة الإفريقية المعدمة التجربة سياسيًّا، لم يصل بها الحال إلى توليف مأسسة كاملة المرجعية، بالرغم من جهودها وطاقاتها المبذولة، في تحقيق قفزة نوعية (والتي تشكل ١٢ بالمائة من الإنتاج العالمي للنفط، و١٠ بالمائة من الاحتياطي العالمي للموارد الأخرى)، بينما نجد في كل من الشق التنموي والأمني واللذان يعدان كأساس لرسالة كل دولة وظائفية، لها علاقة مباشرة بمجتمعها الأصلي، نسبة للأعراف والتقاليد المتوافرة لديها، الأمر الذي جعلها – إذن – عرضة في الحالة الأولى للتخلف، بينما في الحالة الثانية، فإنها تقوم على عدم الاستقرار وغياب السلم.

تكمن أهمية هذا الموضوع في أن القارة الإفريقية ما زالت ضعيفة، بل رخوة، وغير قادرة على العطاء من قبل أبنائها أمام خصومها وأعدائها، سواء في الداخل أم في الخارج، أو كليهما معًا. إنها بالفعل تجربة محدودة للغاية؛ إن لم تكن شاذة في عديد القطاعات والأنشطة الحيوية ذات الصلة، ممَّا جعلها تتذيل الترتيب العالمي، كآخر قارة فوق الأرض. فما طبيعة هذا التردي والتراجع؟ هل هو طبيعي أم إنساني؟ وهل هو محتوم على هذه القارة بأن تبقى كذلك؟ وما العمل للخروج من هذا الوضع الاستثنائي والهش، إن لم تنسق الجهود الرسمية في هذا الصدد، بالاعتناء بالوعي، والوعي الجاد، ومن قبل الأفارقة أنفسهم، بالتخلّص من هذه المعضلات المتنوعة والمختلفة، التي تقوم عليها المجتمعات الإفريقية ذاتها.

ما زالت الجهود البحثية والرسمية – إذن – حديث الساعة، عند ربطها بمصير القارة الإفريقية، مقارنة بنظيرتها من القارات الأخرى، دون أن ترتقي إلى مصافّها، بسبب هذه العوامل، وفواعل أخرى قد أخّرتها عن الركب الحضاري، والتاريخي، والتقني، في تجاوز الصعاب التنظيمية، وتخطي العراقيل التسييرية، سواء أكانت تقنية أم فنية، في الذهاب لما هو أفضل من ذلك، بناءً على ما اصطلِح عنه بالدولة في إفريقيا، على أنها هشة في خضم البناء السياسي، وما ينضوي تحته من شؤون وقضايا كالاقتصاد (التنمية)، والسلم الاجتماعي (الأمن)، كدعامتين أساسيتين، في صرح البناء المؤسساتي، والإداري، والقانوني، والسياسي، والاجتماعي، لكل دولة قوية، مهما كانت، وأينما وجدت.

الهوامش والإحالات

(١) السيد علي أبو فرحة، الدولة الهشة في إفريقيا في ضوء علم الاجتماع السياسي، قراءات إفريقية، (٣، يناير، ٢٠١٨م)، https://www.qiraatafrican.com/home/new/الدولة-الهش-ة-في-إفريقيا-في-ضوء-علم-الاجتماع-السياسي#sthash.bJzZKL0h.dpbs.

(٢) ميلود عامر حاج، الدولة في إفريقيا بين أزمة البناء وشبح الهشاشة، متابعات إفريقية ٢٥ (الرياض: مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية، ٢٠٢٢م)، ١٧، https://www.kfcris.com/ar/view/post/382.

(٣) جيلبرت خادياجالا، شرق إفريقيا: الأمن وإرث الهشاشة، عدد ٨٦ (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، ٢٠٠٩م)، ١٢.
(*) تعرف منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، بأن الدولة الهشة، هي تلك الدولة، غير القادرة على القيام بوظائف رئيسة للحكم الراشد، كونها دولة فاشلة، من خلال ما تقوم به من سياسات اقتصادية، لا تمت بصلة بالأبعاد الاقتصادية، دون اهتمامها بالأبعاد السياسية والاجتماعية. أمَّا صندوق النقد الدولي من جهته، فإنه يرى بأن الدولة الهشة، إذ تقوم على النقيض من ذلك، من خلال ما تقوم به الدولة الوظائفية Functioning State كالاحتكار الشرعي للعنف، وإدارة الموارد المالية بأشكال رشيدة، والاستثمار في رأس المال البشري، وإدارة الخدمات للبنية الأساسية للدولة، وحكم القانون وتفعيله، وإخضاع النخب له، وإدارة مقدرات الدولة...إلخ). إلَّا أن هذا ما لم تقم به الدولة الهشة لمواطنيها، في إطار تقديم الخدمات المطلوبة لهم بأسلوب فعّال؛ بحيث عرفت الدولة الهشة في إفريقيا نحو (٢٠٠ انقلاب منذ الستينيات من القرن الماضي، أي ما يعادل أربعة انقلابات عسكرية في السنة الواحدة، خلال الفترة الممتدة من ١٩٧٠ – ١٩٨٩م، والتي انخفضت مقارنة بالفترة الممتدة من ١٩٩٩ – ٢٠١٠م؛ إذ يوجد نحو ٦٨ محاولة انقلاب، مع تراجع ملحوظ في الآونة الأخيرة لظاهرة الانقلابات العسكرية في إفريقيا)، وكذا التوترات الداخلية والاضطرابات الاجتماعية، ما يؤهلها لدخول الصراعات الأهلية، ذات العلاقة المباشرة بانخفاض الدخل.

(٤) آن كلوزن وإيلا هيمفي، «ماهي الدولة الهشة ؟،» مدونات البنك الدولي، (٢٧، مارس، ٢٠١٥م)، https://blogs.worldbank.org/ar/voices/developmenttalk/what-fragile-state.

(٥) كنزة مغيش، «الدولة الهشة» أم «وضعية الهشاشة»؟ قراءة في إشكالية بناء الدولة في إفريقيا، المجلة الجزائرية للدراسات السياسية، المجلد ٨، العدد ١، (الجزائر: المدرسة الوطنية العليا للعلوم السياسية، ٢٠٢١م)، ٢٣٦.

(٦) شروق مستور، «الأمن والتنمية: ما طبيعة العلاقة بينهما؟،» مرصد ومدونات عمران، (٢٧، يوليو، ٢٠٢١م)، https://omran.org/ar/الأمن-والتنمية-ما-طبيعة-العلاقة-بينهما؟.

(٧) مبروك ساحلي، جدلية الأمن والتنمية، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، عدد ٩، رقم ١، (الجزائر: جامعة العربي التبسي، ٢٠١٦م)، ٤٦.

(8) G. Giovannetti, et al., *European Report on Development 2009, Overcoming Fragility in Africa – Forging a New European Approach* (Florence: Robert Schuman Centre for Advanced Studiesm European University Institute, 2009).

(٩) فريق بيانات البنك الدولي، إطلاق أحدث مؤشرات للتنمية في إفريقيا، (واشنطن: البنك الدولي، ٢٠١١م).

(١٠) الأمم المتحدة، «ثالثاً: جيم: التنمية في إفريقيا،»
https://www.un.org/sg/ar/content/chapter-ii-c-development-africa.

(١١) من الزاوية الأمنية هناك أربعة مفاصل أمنية تشمل مناطق من القارة الإفريقية، هي كالتالي: ١. منطقة خليج غينيا إلى الغرب ٢. منطقة حوض بحيرة تشاد إلى الغرب الأوسط ٣. منطقة البحيرات الكبرى في الوسط ٤. منطقة شرق إفريقيا التي تحتوي على منطقة القرن الإفريقي، إلى جانب نظام الأمن لجنوب إفريقيا.

(١٢) «أبرز المخاطر الأمنية التي ينبغي الاحتراس منها في عام ٢٠٢٣،» منبر الدفاع الأفريقي، (٢٠، ديسمبر، ٢٠٢٢م)، https://adf-magazine.com/ar/2022/12/أبرز-المخاطر-الأمنية-التي-ينبغي-الاحت/.

(١٣) أميرة عبد الحليم، «الأمم المتحدة وجدلية الأمن والتنمية في إفريقيا،» مجلة آراء حول الخليج، العدد ١٤٠ (جدة: آراء حول الخليج، ٢٠١٩م)، https://araa.sa/index.php?option=com_content&view=article&id=4732&catid=4218&Itemid=172.

(١٤) نبيل زكاوي، معضلة الأمن في إفريقيا: هياكل الأزمة وفرص الإصلاح (الدوحة: مركز الجزيرة للدراسات، ٢٠٢١م)، https://studies.aljazeera.net/ar/article/5164.

الاقتصاد السياسي للصراعات المسلحة والحروب الأهلية في إفريقيا

د. سعيد ندا، دكتوراه العلوم السياسية، جامعة القاهرة، القاهرة.

على الرّغم من أنّ ظاهرة الصراعات المسلحة، والحروب الأهلية ليست بجديدة على القارّة الإفريقية، إلا أنَّها تنامت في الآونة الأخيرة أفقيًّا ورأسيًّا بصورة ملحوظة؛ فقد أصبحت أكثر انتشارًا، وأوسع نطاقًا، وأكثر حدَّة، وباتت شبه مستدامة؛ لا تكاد تهدأ، حتى تتجدّد مرّة أخرى. وهو ما يقوّض أركان الدولة، ويحبط جلّ جهود الاستقرار والتنمية.

وبنظرة فاحصة للبيئة الاقتصادية الإفريقية، نجد أنّها تكاد تقتصر على مستويين شائعين للثروة، هما: الوفرة، والندرة؛ فعلى مستوى القارة يمتلك عدد كبير من الدول احتياطيات ضخمة من الموارد الطبيعية والثروات، بينما لا يمتلك بعض الدول شيئًا من هذه الثروات والموارد، وعلى المستوى الوطني، تكاد تنحصر الثروة في أيدي قلّة قليلة من النخب، بينما يرزح غالبية المواطنين تحت خط الفقر، أو الفقر المدقع.

وتثير هذه المتغيّرات لدى الباحثين الكثير من التساؤلات، بما يستوجب تناول الاقتصاد السياسي لظاهرة الصراعات المسلحة في إفريقيا بالرصد والتحليل والتفسير. ولا شك في أن معالجة مثل هذه الظاهرة الشائكة تبدأ بالبحث في أسبابها من منظور اقتصادي، توطئة لتفسيرها، وصولًا إلى طرح مقاربات فعّالة للتحكّم فيها.

وبمراجعة أدبيات تحليل الصراعات،[1] نجد أنّ أسباب هذه الظاهرة تنقسم إلى قسمين رئيسين، أولهما: الأسباب الخارجية، والمتمثّلة في رغبة القوى والفواعل الدولية والإقليمية في الاستحواذ على موارد وثروات القارة، وثانيهما: الأسباب الداخلية، والمتمثّلة في الصراع الأبدي الدائر في كل الدول الإفريقية على السلطة والثروة، بين الدولة والفواعل من دون الدولة، أو بين الفواعل من دون الدولة، وبعضها البعض، وبإمعان النظر فيما ساقته هذه الأدبيات من أسباب، ممّا يندرج تحت هذين القسمين الرئيسين، نجد أنها جميعًا ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالعوامل والمتغيّرات الاقتصادية، وهو ما يمكن القول معه: إن هناك مؤشرات أولية قوية تنبئ بأن العوامل والمتغيرات الاقتصادية ترتبط بنشأة الصراعات المسلحة في إفريقيا، وانتشارها، وتأجيجها، واستمرارها؛ ارتباط السبب بالنتيجة.

واللافت أنه، وعلى الرغم من أن العوامل والمتغيرات الاقتصادية تؤدي دورًا مركزيًّا في الصراعات المسلحة، وبخاصة في إفريقيا، إلَّا أنّها لم تحظَ عالميًّا بالاهتمام الأكاديمي، فضلًا عن الاهتمام السياسي، إلا بعد منتصف تسعينيات القرن العشرين، بالتزامن مع ظهور مجموعة متنامية من الأبحاث الأكاديمية والسياسية، التي أنتجت رؤى جديدة حول الاقتصاد السياسي للصراعات المسلحة.

ولقد كانت الريادة في هذا المضمار للبروفيسور «ديفيد كين» David Keen، حينما أصدر عام ١٩٩٨م بحثًا بعنوان: «الوظائف الاقتصادية للعنف في الحروب الأهلية» The Economic Functions of Violence in Civil Wars، دشّن فيه «نظرية الوظائف الاقتصادية للعنف في الحروب الأهلية»، والتي تبنّاها مذ ذاك الحين كثير من العلماء، أبرزهم «بول كولير» Paul Collier و«أنكي هوفلر» Anke Hoeffler، في بحثهما: «حول الأسباب الاقتصادية للحرب الأهلية» On Economic Causes of Civil War، وتجادل هذه النظرية، بأنه حتى عندما تكون الأسباب والأهداف السياسية والعسكرية واضحة، وتقدم فهمًا منطقيًّا للصراع، فإن المنافع التي توفرها الصراعات والحروب تظل في الخلفية غاية أخيرة، تتجاوز الهدف التقليدي (كسب الحرب، وهزيمة العدو)، إلى هدف آخر، هو المحافظة على استمرار الحرب في حدّ ذاتها؛ حيث تصبح الحرب مشروعًا اقتصاديًّا، يعود بالنفع على أطرافها.

وقد أثارت هذه النظرية اهتمامًا بالغًا بالدور الذي تؤديه العوامل والمتغيرات الاقتصادية في نشأة العنف المسلح، وانتشاره، وتأجيجه، واستمراره. ومع ذلك لا تزال المكتبة العربية تعاني ندرة في الدراسات، التي تتناول هذه الظاهرة، فضلًا عن بحوث اختبارها في البيئة الإفريقية، ومن هنا ثار لدى الباحث إشكالية بحثية، تتمثل في تساؤل رئيس، عن دور العوامل والمتغيرات الاقتصادية في نشأة ظاهرة الصراعات المسلحة في إفريقيا: انتشارها، وتأجيجها، واستمرارها. والإجابة عن هذا التساؤل تتطلب الإجابة عن تساؤلات فرعية عدّة، وأهمها: ما طبيعة العوامل والمتغيرات الاقتصادية في البيئة الإفريقية؟ وما أسباب الصراعات المسلحة في إفريقيا؟ وما أهدافها؟، وكيف أسهمت العوامل والمتغيرات الاقتصادية في نشأة هذه الظاهرة في الخبرة الإفريقية، وانتشارها وتأجيجها واستمرارها؟ وكيف يمكن التحكم في ظاهرة الصراعات المسلحة، عبر العوامل والمتغيرات الاقتصادية؟ تجيب الدراسة عن هذه التساؤلات في المحاور الآتية:

أوّلًا- العوامل والمتغيرات الاقتصادية في البيئة الإفريقية بين الوفرة والندرة

تركز هذه الدراسة على العوامل والمتغيرات الاقتصادية، الأكثر ارتباطًا بالصراعات المسلحة، وهي: الوفرة الاقتصادية (وفرة الثروات والموارد)، والندرة الاقتصادية (العَوَز والفقر)؛ فالبيئة الاقتصادية الإفريقية تتوفر على مصادر هائلة من الثروات والموارد الطبيعية، وفي الوقت ذاته يُصنف غالبية سكانها ضمن الشعوب الأشدّ فقرًا حول العالم، وتؤثر الصراعات المسلحة والحروب الأهلية سلبًا في اقتصادات الدول الإفريقية، بما يقف حجر عثرة أمام تحقيق التنمية الاقتصادية.

- **الوفرة الاقتصادية**

تعدّ إفريقيا منجم العالم، وسلة غذائه؛ حيث تتوفر على نحو ٣٠٪ من احتياطيات العالم من المعادن، ونحو ٨٪ من احتياطات الغاز الطبيعي، ونحو ١٢٪ من احتياطات النفط، ونحو نصف احتياطيات الذهب، ونحو ٩٠٪ من الكروم، هذا بخلاف الاحتياطات الهائلة من الماس، والبلاتين، واليورانيوم، والكوبالت، والحديد، والسيلكون والبوكسيت، وغيرها من المعادن، كما تتوفر القارة على نحو ٦٥٪ من الأراضي الصالحة للزراعة في العالم، ونحو ١٠٪ من مصادر المياه العذبة المتجدّدة، وغير ذلك الكثير من الموارد الطبيعية والثروات، ممّا لا يتسع المقام لإحصائه.[٢]

والجدير بالملاحظة هنا أن كل الدول الإفريقية الغنية بالموارد شهدت شكلًا من أشكال الصراعات المسلحة، وأن هذه الصراعات لا تكاد تنتهي، حتى تتجدّد بصورة أو بأخرى، ومن أبرز الأمثلة على هذه الصراعات المتجددة، الصراع الدائر في شرقي الكونغو الديمقراطية.[٣]

- **الندرة الاقتصادية**

على الرغم من هذه الوفرة الاقتصادية، التي تتمتع بها جل دول القارة، إلَّا أن غالبية شعوبها لا تزال تحتلّ مراكز متأخرة في قوائم تصنيفات الفقر حول العالم؛ فقد أظهر مؤشر «جلوبال فاينانس» Global Finance، الصادر في يوليو عام ٢٠٢٣م، استنادًا إلى بيانات البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي، أن البلدان العشرة الأشدّ فقرًا حول العالم تقع جميعها في القارة الإفريقية، وهي: جنوب السودان، وبورندي، وإفريقيا الوسطى، والصومال، والكونغو الديمقراطية، وموزمبيق، والنيجر، وملاوي، وتشاد، وليبيريا.[٤][٥]

ووفقًا لنتائج مؤسسة «جالوب» Gallup الأمريكية، فإن نحو ٥٤٪ من تعداد السكان، في (٢٧) دولة في إفريقيا جنوب الصحراء، يعيشون في فقر مدقع، أي على أقل من (١,٢٥) دولار يوميًّا، بينما يعيش نحو

١٦٪ من سكان الشرق الأوسط، وشمالي إفريقيا، على (١,٢٥) دولار أو أقل في اليوم، فيما يعيش نحو ٢٨٪ في المائة من سكان المنطقة ذاتها على دولارين اثنين أو أقل في اليوم.[٦]

واللافت هنا، أن ظاهرة فقر الشعوب الإفريقية لا ترتبط بالضرورة بفقر الدولة أو غناها بالثروات والموارد؛ فكم من دول غنية بمصادر الثروة، يعيش كثير من سكانها تحت خط الفقر، والفقر المدقع، ومنها جنوب إفريقيا، ونيجيريا، وأنجولا، والجابون، وغينيا الاستوائية، وكم من دول فقيرة الموارد، يحظى فيها حائزو السلطة وأقاربهم ومقربوهم بثروات طائلة؛ إذ يستحوذون على موارد الدولة، وهذا يعني، أن الفقر في إفريقيا يرجع بدرجة كبيرة إلى الفساد، وغياب عدالة التوزيع، بغضّ النظر عن وفرة الموارد، أو ندرتها.

- **تأثير الصراعات المسلحة والحروب الأهلية في اقتصادات الدول الإفريقية**

تُجمع أدبيات الاقتصاد السياسي على خطورة الانعكاسات السلبية للصراعات المسلحة والحروب الأهلية على مستقبل التنمية الاقتصادية في الدول الإفريقية؛ فعلى سبيل المثال: تنخفض معدلات النمو الاقتصادي في دول الصراع، عنها في الدول الخالية من الصراعات، بما يعادل نحو ٢,٥٪ في المتوسط، كما تسببت (٥) سنوات من الصراعات، في انخفاض معدل نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي، بنحو ١٥٪ المتحقق في بعض دول الصراع، عن معدل نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي المتوقع، وفقًا لتنبؤات قاعدة بيانات صندوق النقد الدولي لآفاق الاقتصاد العالمي، في الدول ذاتها قبل الصراع.[٧]

وقد ثبت أيضًا انخفاض تدفّقات الاستثمار الأجنبي المباشر إلى إفريقيا، بسبب تنامي الصراعات قبل عام ٢٠٠٠م، كما حدث في أنجولا، وبوروندي، والكونغو الديمقراطية، وإريتريا، وإثيوبيا، ونيجيريا، والسودان، وأوغندا. ثم بدأت هذه التدفقات في التزايد مع هدوء الأوضاع بعد عام ٢٠٠٠م، وبلغت ذروتها بحلول عام ٢٠١١م، ثم عاودت الانخفاض مع تزايد حدّة الصراعات، والتي بلغت نحو ١١١٪ ، بسبب التمرد والانتفاضة العربية شمالي إفريقيا، وكذلك ثبت انخفاض حجم الاستثمار المحلي بسبب انتشار الصراعات المسلحة والحروب الأهلية في الفترات السابقة ذاتها، تأثّرًا بزيادة المخاطرة، وضعف عوائد الاستثمار في هذه البيئة الصراعية.[٨]

ومن خلال هذه الإحصائيات، وبوضع التأثيرات السلبية، التي لحقت بمتغّيرات، مثل: النمو الاقتصادي، ومتوسط نصيب الفرد من الناتج المحلي الإجمالي، وتدفّقات الاستثمار الأجنبي المباشر، وحجم الاستثمار المحلي، بسبب الصراعات المسلحة، والحروب الأهلية في الحُسبان، يمكن القول: إن هناك علاقة عكسية، بين نشأة الصراعات المسلحة والحروب الأهلية، وانتشارها، وتأجيجها، واستمرارها، ومعدلات الأداء الاقتصادي في إفريقيا.

ثانيًا - ظاهرة الصراعات المسلحة في إفريقيا بين تعدد الأسباب ووحدة الهدف

تعدّ ظاهرة الصراعات المسلحة في البيئة الإفريقية من الظواهر شديدة التعقيد؛ أي إنها متعدّدة الأسباب، بحيث لا يمكن إسنادها إلى سبب واحد دون غيره، لكن يغلب أن يكون هناك سبب جذري، تطغى تأثيراته على تأثيرات غيره من الأسباب، والتي تعدّ - حينئذ - ثانوية بالنسبة له. وأيًّا كانت الأسباب، فالمؤشرات الأولية تنبئ أن الأهداف القريبة، والغايات البعيدة للصراعات في إفريقيا، تكاد تنحصر في جَني المنافع الاقتصادية، وفيما يلي بيان موجز لأبرز الأسباب الاقتصادية، وأكثرها شيوعًا في البيئة الإفريقية:

- **أسباب مباشرة**

وهي الأسباب التي تقف وراء الصراعات، ذات الأهداف المباشرة (واضحة الأهداف)، والتي تستهدف الاستحواذ على الثروات والموارد، وفي مقدمتها:

١- الصراع على الموارد

وتستهدف هذه الصراعات الاستحواذ مباشرة على الثروات والموارد الطبيعية، كما هو الحال في الصراعات، التي تنشأ للاستحواذ على مناجم المعادن الثمينة، مثل: الذهب، والألماس، وغيرهما، والمثال الأوضح هنا، هو ذلك الصراع الدائر في شرقي الكونغو الديمقراطية، والصراعات الدائرة على مناجم الذهب في السودان، وبوركينا فاسو، ومالي والنيجر، وممَّا يؤكد هذا النظر، ما كُشِف عنه من فارق يقدّر بنحو (٤) مليارات دولار، بين واردات الذهب المعلنة من قبل دولة الإمارات، وما صدّرته الدول الإفريقية إليها رسميًّا، وما أعلنت عنه وزارة المالية السودانية من أن ٨٠٪ من إنتاج الذهب يذهب دون تسجيل، وما كشفت عنه تقديرات البنك الدولي من زيادة صادرات رواندا من الذهب إلى ما قيمته (٧٣٢) مليون دولار، أي أكثر من ضعفين ونصف من قيمة صادراتها لعام ٢٠١٩م، على الرغم من أنها لا تكاد تستخرج الذهب محليًّا، وهو ما دعا الكونغو الديمقراطية إلى اتهامها بالتعامل على الذهب المهرب من أراضيها؛ حيث تمتلك الكونغو الديمقراطية أكبر منجم للذهب في إفريقيا، في كيبالي شمال شرقي البلاد، وما كشفت عنه إحصاءات الأمم المتحدة، وصندوق النقد الدولي من تصدير أوغندا سبائك بقيمة (١,٨) مليار دولار، وتصدير رواندا سبائك بقيمة (٦٤٨) مليون دولار على التوالي في عام ٢٠٢٠م، على الرغم من ضآلة ما يمتلكانه من ذهب، وما كشفت عنه بيانات الحكومة النيجيرية من أن ما لا يقل عن (١٠٠) ألف شخص، يعملون في التعدين غير الرسمي.[٩]

٢- الجريمة المنظمة

تروّج التجارة غير المشروعة في سائر السلع الثمينة الممكنة في إفريقيا، بما في ذلك تجارة البشر، وهو

ما يشعل صراعات عنيفة مسلحة، بين مافيا الجريمة المنظمة، والحكومات الإفريقية، وبخاصة في غربي إفريقيا، ومنطقة الساحل والصحراء، والتي تشهد حالة متصاعدة من عدم الاستقرار والعنف المسلح.[١٠]

- **أسباب غير مباشرة**

وهي الأسباب التي تقف وراء الصراعات ذات الأهداف غير المباشرة (الغايات البعيدة)، والتي تستهدف الاستحواذ على الثروات والموارد، وفي مقدمتها:

١- الصراع على السلطة

يعدّ إسناد السلطة من أكبر المعضلات الإفريقية، التي تدور عليها رحى جل الصراعات في إفريقيا، ذلك بأن السلطة هي أقصر الطرق إلى الثروة وأسهلها، هذا فضلًا عمَّا تمنحه السلطة من نفوذ ومكانة اجتماعية في مجتمعات تقوم بطبيعتها على القوة الإثنية؛ فالانتماء إلى القبيلة والعشيرة، وما تفرّع عنها، يعلو في جل المجتمعات الإفريقية على الهوية الوطنية الجامعة، وكم اشتعلت صراعات تستهدف الوصول إلى السلطة، وتتغيّا الاستحواذ على الموارد والثروات، ومن ذلك ما حدث مؤخرًا في إثيوبيا بين «الجبهة الشعبية لتحرير تيجراي»، والحكومة الاتحادية، وما حدث في السودان بين قوات الدعم السريع، والجيش الوطني السوداني، وما حدث في الحربين الأهليتين في ليبيريا، والحرب الأهلية في سيراليون، وكان الهدف القريب لهذه الصراعات هو الوصول إلى السلطة، والغاية البعيدة الاستحواذ على الموارد والثروات.[١١]

٢- الإرهاب

لقد أصبح الإرهاب الظاهرة الأبرز في الفضاء الاجتماعي الإفريقي، وإليه تُعزى جلُّ الصراعات المشتعلة في أرجاء القارة، وبغضّ النظر عن مدى صحة هذا العزو، فالفواعل العنيفة من دون الدولة ترفع شعارات دينية - والدين منهم براء - بل والفواعل الدولية التي تقف وراء نشر هذه الظاهرة، من دول، أو شركات عالمية كبرى، لا تنفك تُسمّيهم زورًا : الجهاديين، و« الإسلامويين»، غير أن كثيرًا من الحقائق بشأن هذا الخداع المنهج تبدّت في الآونة الأخيرة، وصدرت في هذا المعنى دراسات وتحليلات وبحوث، انتهت جميعًا إلى أن المحرك الخفي لهذه الظاهرة هو زعزعة الاستقرار، كوسيلة للاستحواذ على موارد ثروات الشعوب الإفريقية.[١٢]

ثالثًا - دور العوامل والمتغيرات الاقتصادية في الصراعات المسلحة في الخبرة الإفريقية

تقوم «نظرية الوظائف الاقتصادية للعنف في الحروب الأهلية» على فكرة قوامها، أن هناك منافع اقتصادية تجنيها الأطراف، (*) جرّاء نشأة الصراعات المسلحة، وانتشارها، وتأجيجها، واستمرارها، وأن هذا العنف الاقتصادي يتّخذ عادة شكلين، أولهما: العنف من أعلى إلى أسفل، وهو العنف الذي تشعله النخب، وينشرونه

ويحرضون عليه، بل ويدعمونه، من أجل تحقيق أهدافهم وغاياتهم، والتي تكاد تنحصر في الاستحواذ على الوفرة الاقتصادية، وثانيهما: العنف من أسفل إلى أعلى، وهو العنف الذي تشغله الفئات الاجتماعية الدنيا من البسطاء، والمعدمين، والفقراء، وصغار الموظفين، والجنود، نتيجة الإقصاء، والاستبعاد الاجتماعي والاقتصادي، والفقر والعوز، من أجل التعبير عن التمرّد على أوضاعهم، ومحاولة رفع الظلم عن أنفسهم، وإشباع الحاجات الناشئة عمّا يعيشون فيه من ندرة اقتصادية.[١٣]

ووفقًا لهذه النظرية، فإنه يمكن تفسير جلّ - إن لم يكن كلّ - الصراعات في العالم، وبصفة خاصة في إفريقيا، حيث تجتمع الوفرة مع الندرة في آن واحد، ومن هنا تشتد الحاجة إلى اختبار هذه النظرية في بعض الحالات الإفريقية.

- **حالة الكونغو الديمقراطية (عنف من أعلى إلى أسفل)**

لما يقارب ثلاثة العقود تشهد الكونغو الديمقراطية حروبًا أهلية، وصراعات مسلحة، لا تزال مستعرة حتى وقتنا هذا (ديسمبر ٢٠٢٣م)، وقد مرّت هذه الصراعات بثلاث مراحل رئيسة، بدأت بالحرب الكونغولية الأولى ما بين عامي (١٩٩٦ و١٩٩٧م)، ثمّ الحرب الكونغولية الثانية بين عامي(١٩٩٨ و٢٠٠٣م)، ثم آلت هاتان الحربان الأهليتان إلى صراع مسلح، يُطلِق عليه البعض «الحرب العالمية الإفريقية»، فقد شارك فيه من بدايته حتى الآن تسع دول إفريقية، وأكثر من ١٢٠ مجموعة مسلحة محلية وخارجية.[١٤]

ويعدّ صراع الكونغو الديمقراطية من الصراعات شديدة التعقيد، متعدّدة الأسباب، ومن هذه الأسباب: الوصول إلى السلطة، وإعلاء الهويات الإثنية، والتدخلات الخارجية، غير أن الصراع، وبخاصة في مراحله المتأخرة والراهنة، تحوّل تدريجيًّا إلى صراع من أجل المنافع الاقتصادية؛ فالكونغو الديمقراطية، وبخاصة شرقي الكونغو تتوفر على ثروات هائلة من الذهب، والألماس، والنحاس، والكوبالت، والقصدير، والتنتالوم، والتنجستن، وغيرها من المعادن الثمينة، وقد تحوّل أطراف هذا الصراع - بلا استثناء - إلى «أمراء حرب»، يجنون منافعها الاقتصادية، بدءًا بالمسؤولين الحكوميين، وبخاصة العسكريون، مرورًا بقادة المجموعات المسلحة، وزعماء الجماعات الإثنية، وصولًا إلى شبكات الجريمة المنظمة المحلية والدولية، والشركات متعدّدة الجنسيات، وحكومات دول الجوار المباشر، بل وغير المباشر. [١٥]

- **حالة السنغال (عنف من أسفل إلى أعلى)**

خلّفت السياسات الخاطئة لحكومات داكار في التعامل مع مواطني إقليم «كازامانس» مظالمَ كثيرة في شتى المجالات؛ ما مهّد إلى ظهور المطالب الانفصالية في ٢٦ ديسمبر ١٩٨٢م، عبر مظاهرات اندلعت في

«زيجينشور» عاصمة «كازامانس»، وعلى إثر ذلك تشكّلت «حركة القوى الديمقراطية في كازامانس»، مناديةً بانفصال الإقليم عن السنغال، فتطوّر الصراع إلى حرب أهلية عمّت الإقليم، وتوالت الصدامات بين الحركة والحكومة المركزية تباعًا، وها هو الصراع يتجاوز نصف القرن، مذ بدأ إلى وقتنا هذا، دون تسوية حقيقية.(١٦)

وقد انخرطت في هذا الصراع القوى المحلية من «كازامانس»، والتي انقسمت على نفسها بمرور الزمن في مواجهة الحكومة المركزية السنغالية، وتورّطت حكومات خارجية في الصراع، مثل: حكومات جامبيا وغينيا، وتُعزى نشأة هذا الصراع إلى تراكم المظالم الاقتصادية والاجتماعية، وما اكتسبته من زخم شعبوي، غير أنّه في مراحل متأخرة تحوّل إلى صراع نخبوي، قوامه المنافع الاقتصادية، بعد انخراط قادة حركة التمرد في التجارة غير المشروعة، كالأخشاب الثمينة، والقنب الهندي، والكاجو، وغير ذلك ممّا يشتهر به الإقليم من بضائع، عن طريق التهريب عبر الحدود مع دول الجوار: جامبيا، وغينيا بيساو. (١٧)

حالة السودانيين (عنف من أسفل إلى أعلى ثم من أعلى إلى أسفل)

شهد السودان أطول الحروب الأهلية الإفريقية، والتي مرّت مذ بدأت بمراحل ثلاث، أولاها: بين عامي ١٩٥٥ و١٩٧٢م، وعرفت بحرب «أنيانيا ١»، وثانيتها: بين عامي ١٩٨٣ و٢٠١١م، وعرفت بحرب «أنيانيا ٢» والتي آلت إلى انفصال جنوب السودان، ليشكل دولة مستقلة، ثم جاءت المرحلة الثالثة: لتشتعل في جنوب السودان سريعًا أواخر عام ٢٠١٣م، ولا تزال تستعصي على التسوية النهائية حتى الآن، بينما تراخى اشتعالها بعض الشيء في السودان، إلى آخر عام ٢٠١٨م، فيما عرف بحرب «الدعامة»، ولا تزال رحاها تدور راهنًا.(١٨)

وبالنظر إلى الحربين الأهليتين؛ الأولى والثانية، نجد أن المظالم التي تعرض لها الجنوبيون، جرّاء السياسات الجائرة للحكومات السودانية المركزية، التي تقف وراءهما بشكل رئيس، مع عدم استبعاد العوامل والمتغيرات الاقتصادية، المتمثلة في مصالح الأطراف الخارجية ذات الصلة، ومصالح الأطراف من النخب الجنوبية، والتي بدأت تلوح في الأفق مع «أنيانيا ٢» بعد اكتشاف النفط في جنوب السودان، وهو ما يعني أن هاتين الحربين، بدأتا بالعنف من أسفل إلى أعلى، ثم بدأ اتجاه العنف يتغير إلى: من أعلى إلى أسفل، أواسط المرحلة الثانية. (١٩)

وبالنظر إلى المرحلة الثالثة، فيما يخص حرب جنوب السودان الراهنة، فإننا نجد أنها بدأت بين النخب، صراعًا على السلطة، وكما أسلفنا سابقًا، تتمثل الغاية البعيدة للوصول إلى السلطة، في الاستحواذ على مصادر الثروة، كالموارد النفطية، وغيرها من موارد الدولة. (٢٠)

وبالنظر إلى المرحلة الثالثة، فيما يخص حرب السودان الراهنة، فإننا نجد أنها بدأت بانتفاضة مظالم شعبية (من أسفل إلى أعلى)، والتقطت النخب العسكرية خيوطها، وامتلكت زمامها (من أعلى إلى أسفل)، وحركوها باتجاه تحقيق أهدافهم وغاياتهم ومطامعهم، ومطامع محرّكيهم الخارجيين الاقتصادية، والمتمثلة في الاستحواذ على مصادر الثروة، وما أكثرها في السودان، وفي مقدمتها تعدين الذهب والماس.[٢١]

رابعًا - مقاربات أولية للتحكم في الظاهرة

يقتضي التحكّم في الظواهر معالجة أسبابها الجذرية، ولما كانت المنافع الاقتصادية للعنف المسلح، والحروب الأهلية - كما مرّ معنا - تقف وراء جلّ - إن لم يكن كلّ - الصراعات حول العالم، وفي إفريقيا بصفة خاصة، فقد تعيّن عند طرح مقاربات أولية للتحكم في هذه الظاهرة الانطلاقُ من حيث العوامل والمتغيرات الاقتصادية، التي تقف وراء نشأتها، وانتشارها، وتأجيجها، واستمرارها. ولّما كنّا قد حدّدنا أن أهمّ هذه العوامل والمتغيّرات تتمثّل في أساليب، مثل: الاستحواذ على الموارد، والوصول إلى السلطة، وانتشار الجريمة المنظمة والإرهاب؛ فقد تعيّن البدء بالتحكّم فيها، ويمكن أن يكون ذلك عبر طرق عدّة، وأبرزها:

١- إحكام سيطرة الدولة على مصادر الثروة والموارد الطبيعية، وتنظيم عمليات استخراجها.
٢- إحكام سيطرة الدولة على حدودها لمنع تهريب الموارد.
٣- مكافحة الفساد لمنع تسهيل تهريب الموارد.
٤- تأمين عدالة التوزيع، والقضاء على الفقر أو الحد منه.
٥- إرساء قواعد التنافس على السلطة السياسية.
٦- تبني الأطر والسياسات التي تؤمن التزام الأطراف بقواعد الممارسة السياسية.
٧- نشر وترسيخ القيم الفضلى في الثقافية العامة والسياسية للنخب والجماهير.
٨- تطوير تأمين وتمويل آليات وأساليب وأدوات مكافحة الإرهاب، والجريمة المنظمة.
٩- استخدام الوسائل والأساليب الذكية في المواجهة، عوضًا عن الأساليب والوسائل التقليدية الصدامية والعنيفة.
١٠- توفير بدائل وفرص ملائمة ومقبولة، لإشباع حاجات الطبقات المهمشة والمعدومة، للنأي بهم عن انتهاج العنف والجريمة والإرهاب.
١١- توفير حوافز عينية لجذب صغار المتمردين، وتحفيزهم على ترك السلاح، بالتزامن مع إيجاد خطط وبرامج للتأهيل، وإعادة الإدماج.
١٢- قطع الطريق أمام التدخلات الخارجية.

خاتمة

لقد أكّد اختبار نظرية: الوظائف الاقتصادية للعنف المسلح والحروب الأهلية في البيئة الإفريقية، أن الأسباب التقليدية لهذه الظاهرة تراجعت وتوارت، أو أصبحت أسبابًا ثانوية، أو محفّزة، وأن العوامل والمتغيرات الاقتصادية أصبحت بمنزِلة الأسباب الجذرية لنشأة الظاهرة، وانتشارها، وتأجيجها، واستمرارها، وهو ما يعني، أن جلّ - إن لم يكن كلّ - الصراعات الإفريقية أصبحت تدور وجودًا وعدمًا، مع المنافع التي يجنيها أطرافها، وهو ما يمكن القول معه: إن التحكم في هذه الظاهرة، من أجل إنهائها، أو الحدّ منها، يبدأ بالتحكم في هذه المنافع، بالقضاء عليها، أو الحد منها، مع عدم إهمال الأسباب التقليدية.

الهوامش والإحالات

(١) من أهم هذه الأدبيات:

- Eoin McGuirk and Marshall Burke, "The Economic Origins of Conflict in Africa," *NBER Working Paper Series, Working Paper 23056*, 2017, 2-56.
- Jean-Noël Beka Be Nguema, "Political and Economic Causes of Civil Wars in African Countries Based on Econometric Findings," *Journal of Power, Politics & Governance*, 4:2, 2016, 27-35.
- Mathieu Couttenier and Raphael Soubeyran, "A Survey of the Causes of Civil Conflicts: Natural Factors and Economic Conditions," *Revue d'économie politique*, 125: 6, 2015, 788-803.
- John Anyanwu, "Economic and Political Causes of Civil Wars in Africa: Some Econometric Results," *Economic Research Papers*, 37: 2002, 5-12.
- David Keen, *The Economic Functions of Violence in Civil Wars 38: 320* (London: International Institute for Strategic Studies, 1998), 1-98.
- Paul Collier and Anke Hoeffler, "On economic causes of civil war," *Oxford Economic Papers*, 50: 4, 1998, 563–573.

(٢) سماح زهران، «إفريقيا: إمكانيات وتحديات،» (القاهرة: كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، جامعة عين شمس، المجلد ١، العدد ١، يناير ٢٠٢١م)، ١- ٥.

(٣) سعيد ندا، «قراءة في مقاربة «إياك» لتسوية الصراع في الكونغو الديمقراطية،» قراءات إفريقية، (٢٦، يونيو، ٢٠٢٢م)، https://qiraatafrican.com/4308/.

(4) Luca Ventura, "Poorest Countries in the World 2023," *Global Finance Magazine*, November 1, 2023, https://gfmag.com/data/economic-data/poorest-country-in-the-world/.

(٥) «إفريقيا «الغنية» تفشل في علاج «متلازمة الفقر».. ما الأسباب؟،» سكاي نيوز عربية، (٣١، يونيو، ٢٠٢٣م)، https://www.skynewsarabia.com/world/1641387.

(6) Ventura, "Poorest Countries in the World 2023".

(7) Xiangming Fang, et al., "The Economic Consequences of Conflict in Sub-Saharan Africa," *IMF Working Papers*, 20: 221, 2020, 11-21.

(8) Edward Tafah Edokat, et al., "Effects of armed conflict on economic growth in sub- Saharan Africa," *Eximia Journal, Plus Communication Consulting SRL*, 6: 1, 2023, 28-46.

- Kwabena Gyimah-Brempong and Marva E. Corley, "Civil Wars and Economic Growth in Sub-Saharan Africa," *Journal of African Economies*, 14: 2, 2005, 270–306.

(٩) «ذهب إفريقيا بين الملاذات الآمنة وعصابات التهريب المحلية،» الشرق بلومبيرج، (٣٠، ديسمبر، ٢٠٢١م)، https://www.asharqbusiness.com/article/30622/.

– «مناجم الذهب: مصدر التمويل الأول للجماعات الإرهابية في إفريقيا،» سبوتنيك عربي، (١٣، يونيو، ٢٠٢٢م)، https://sputnikarabic.ae/20220613/-1063526174مناجم-الذهب-مصدر-التمويل-الأول-للجماعات-الإرهابية-في-أفريقيا.html.

(١٠) ولفرام لاخر، «الجريمة المنظمة والصراع في منطقة الساحل والصحراء،» أوراق كارنيجي، (بيروت: مركز كارنيجي للشرق الأوسط، ٢٠١٢م)، ١-٢٢.

(١١) د. سعيد ندا، «هل ينفصل إقليم «تيجراي» عن إثيوبيا؟،» قراءات إفريقية، (١٠، نوفمبر، ٢٠٢٢م)، https://qiraatafrican.com/4361/.

(١٢) فينسينزو روجييرو، «قراءة في كتاب: الجريمة المنظمة والشبكات الإرهابية،» عدد ٣٢، (الرياض: التحالف الإسلامي العسكري لمحاربة الإرهاب،٢٠٢١م)، ١-١١.

(*) يقصد بالأطراف هنا: الأطراف (المباشرة) المتصارعة، والأطراف (غير المباشرة) التي تقف وراءها، وكل الأطراف التي يمكن أن تجني منافع اقتصادية من الصراع.

(13) *The Economic Functions of Violence in Civil Wars* 38: 320.
- Collier and Hoeffler, "On economic causes of civil war".

(١٤) ندا، «قراءة في مقاربة «إياك» لتسوية الصراع في الكونغو الديمقراطية».

(١٥) ندا، «قراءة في مقاربة «إياك» لتسوية الصراع في الكونغو الديمقراطية».

ولمزيد من البيانات عن نشأة وتطور صراع الكونغو الديمقراطية انظر:
- United Nations, Economic Commission for Africa, *Conflicts in the Democratic Republic of Congo causes, impact and implications for the Great Lakes region* (Addis Ababa: United Nations, Economic Commission for Africa, 2015) 21-26.
- Giacomo De Luca, et. al., "Mineral Resources and Conflicts in the Democratic Republic of the Congo: A Case of Ecological Fallacy," *IFPRI Discussion Paper*, 01193, 2012, 3-24.
- Mary McCartin, "Complex conflict in the Democratic Republic of the Congo: Good Governance a Prerequisite of CSR (Corporate Social Responsibility) Peacebuilding" *ACCORD*, March 8, 2013, https://www.accord.org.za/ajcr-issues/complex-conflict-in-the-democratic-republic-of-the-congo/.

(16) Sandra Tombe, "The Casamance Conflict: Un-Imagining a Community," (Unpublished Master Theses, University of Louisville, Kentucky, 2016), 19-23.

(17) Arne Aeris, "Natural Resources in Casamance: Obstacles or Vectors for Peace?," *Studia Europaea*, 64: 2, 2019, 295-306.
- Mouhamadou Kane, "The Silent Destruction of Senegal's Last Forests," *Institute for Security Studies*, January 17, 2019, https://issafrica.org/iss-today/the-silent-destruction-of-senegals-last-forests.

(١٨) ١٧، أبريل، ٢٠٢٣م)،
https://www.skynewsarabia.com/middle-east/1613765-السودان-حروب-أهلية-مرّ-العقود-أودت-بحياة-الملايين.

(19) Marina Ottaway and Mai El-Sadany, *The Carnegie Papers: Sudan: From Conflict to Conflict* (Washington D.C: Carnegie Endowment for International Peace, 2012), 1-8.

– أحمد الأنباري، «الصراع في جنوب السودان: الأسباب والنتائج»، مجلة: كلية القانون للعلوم القانونية والسياسية المجلد ٩، العدد ٣٣ (كركوك: كلية القانون والعلوم السياسية، جامعة كركوك، ٢٠٢٠م)، ٢٠١-٢٢٤.

(٢٠) سامي السيد أحمد، «الجهود الإفريقية لتسوية الصراع في جنوب السودان»، مجلة: السياسة الدولية االعدد ٢٢٢ (القاهرة: مؤسسة الأهرام، ٢٠٢٠م)، ٥٨-٧٥،
https://www.siyassa.org.eg/Media/News/2021/2/7/2021-637483165974450297-445.pdf.

– «حرب جنوب السودان الأهلية: متوالية التقسيم والانفصال»، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٦م)، ١-٥.

(٢١)
للشفافية والسياسات، ٢٠٢٣م)، ١ – ١٨.

العنف الانتخابي في كينيا والحوار الوطني وآفاق الديمقراطية

آية بدر، باحثة دكتوراه في العلوم السياسية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، القاهرة.

لطالما اتَّسم مسار التحول الديمقراطي في السياق الإفريقي بالاضطراب؛ جرَّاء العديد من العوامل الممتدَّة منذ الإرث الاستعماري، فضلًا عن الحداثة النسبية للنظم الانتخابية، والتعددية الحزبية، بما يجعل ممارسات الديمقراطية على المحك، ومحلًّا للاختبار مع كل استحقاق انتخابي، وخاصة في إطار السياقات الأكثر تعقيدًا، والتي تتداخل فيها العوامل السياسية، والاقتصادية، والمجتمعية، والإثنية، والطبقية، والقبلية، على نحو قد ينذر بإشعال فتيل العنف والاستقطاب، في ظل التنافس متعدد الأبعاد على السلطة.

ورغم ذلك برزت بعض التجارب الإفريقية، التي حقَّقت نجاحًا نسبيًّا وتدريجيًّا، في إطار التحول الديمقراطي، والانتقال الحثيث صوب التعددية الحزبية. ولعلَّ أبرز تلك النماذج كانت كينيا، ولكنّها ليست ببعيدة عن تلك الحالة العامة في السياق الإفريقي، بل إن لها خصوصيتها التاريخية، بفعل ما شهدته من مآسٍ، جرَّاء الصراع العنيف والدامي على السلطة، والذي جرّ البلاد لويلات العنف الانتخابي، والصراعات المسلحة، المدفوعة بالعوامل الإثنية في عام ٢٠٠٧م، الأمر الذي يمثل نقطة سوداء في مسار الممارسات الانتخابية، والتحول الديمقراطي في البلاد. ويُخشى أن تتكرّر مآسي العنف الانتخابي والاستقطاب، في ظل احتدام وتيرة الخلافات، واتساع الهوة بين النظام الحاكم والمعارضة، في إطار احتدام التنافس على السلطة، والتشكيك في الشرعية، وهو الأمر الذي تعيشه كينيا، منذ انتخابات عام ٢٠٢٢م.

ومن ثم، تسعى هذه الورقة لتسليط الضوء على مساعي النظام السياسي الحاكم، لرأب الصدع، وتجاوز آفاق العنف الانتخابي والاستقطاب، من خلال اللجوء لآليات الحوار مع المعارضة، وما يمكن أن تسهم به تلك الخطوة، نحو استعادة الاستقرار، والتعايش السلمي بين مختلف الأطراف السياسية، والوصول للتوافق حول العديد من القضايا محل الاختلاف بين الطرفين، وذلك من خلال المحاور الآتية:

أوّلًا - ملامح المشهد السياسي في كينيا منذ الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٢٢م

رغم أن البلاد لم تشهد عنفًا انتخابيًّا كما كان عليه الحال في عام ٢٠٠٧م؛ إلَّا أن المجال العام قد شهد بعض التطورات، التي كان من شأنها تشكيل ملامح المشهد، والتفاعلات بين مختلف الأطراف، وهو ما يمكن إيجازه على النحو الآتي:

فقُبيل الانتخابات عانت البلاد تفاقم الأزمة الاقتصادية، جرَّاء تداعيات الأوضاع العالمية، مثل الأزمة الروسية – الأوكرانية، وكذا جائحة كورونا، ممَّا أسهم في تردي الأوضاع المعيشة، وارتفاع معدّلات التضخم، وهو ما جعل الملف الاقتصادي يحظى بالأولوية، حتى في البرامج الانتخابية للمتنافسين على مقعد الرئاسة، وفي الخطاب السياسي بُعيد الانتخابات. ومع ذلك، فقد تعثَّرت مساعي حكومة الرئيس: روتو على صعيد التعامل مع العديد من التحدّيات الاقتصادية، تحت وطأة الغضب الشعبي، الأمر الذي هدَّد شعبيته، واستقرار نظامه الحاكم، كما سيُتَناوَل لاحقًا.(١)

واتّصالًا بتردّي الوضع الاقتصادي، فقد ازدادت حدَّة الاستقطاب السياسي، منذ اللحظة الأولى لإعلان نتائج الانتخابات، وذلك بفعل اعتراض المرشَّح الخاسر: «رايلا أودينجا»، إلَّا أنَّ القضاء قد أكَّد صحَّة فوز الرئيس: «ويليام روتو»، وهو ما جرَّ البلاد لموجة من الفوضى والاضطرابات، والعنف الانتخابي، وأعاد للأذهان أحداث عام ٢٠٠٧م. وقد استغلَّت المعارضة الأوضاع الاقتصادية المتأزمة، والسياسات التي تبنَّتها الحكومة للتعامل مع هذا الوضع، من أجل تأليب الشارع، عبر تأجيج موجة جديدة من الاحتجاجات والمواجهات، بين القوات الأمنية والمحتجين، في أشهر مارس ومايو ويوليو عام ٢٠٢٣م، للاعتراض على سياسات رفع الدعم عن الطاقة، وبعض الحبوب الغذائية، وكذا الزيادات الضريبية، والتي لم تخفت وتيرتها سوى عبر الحوار، بين معسكري: الحكومة والمعارضة.

وفي مثل هذا السياق، تنامت المخاطر الأمنية أيضًا عن طريق أنشطة الجماعات الإرهابية داخل البلاد، خصوصًا في أقاليم شمال الشرق، القريبة من الصومال، وذلك بفعل الهجمات التي تشنّها حركة الشباب الصومالية، ردًّا على الوجود العسكري الكيني في الصومال، فنجم عن ذلك سقوط ضحايا من المدنيين والعناصر الأمنية أيضًا.(٢) بالإضافة لتزايد نشاط الميليشيات الرعوية، والتي أسهمت بدورها في نمو خطر العنف الطائفي، في إطار التنافس على الوصول إلى المراعي، وموارد المياه والماشية، وقد أطلقت قوات الجيش والشرطة عملية أمنية، من أجل وقف هذه التهديدات.(٣)

وعمومًا فقد تنامت حالة من الاستياء، بفعل أزمة ارتفاع تكاليف المعيشة، بالمخالفة للوعود الانتخابية، التي سبق أن قدَّمها «روتو» قُبيل الانتخابات، ولذا تناقصت الثقة الشعبية في الحكومة، بموجب عدم قدرتها على تلبية التوقعات الشعبية، ودفعهم لحصد ثمار التنمية فوريًّا، الأمر الذي قد يمثّل تهديدًا لقيم الديمقراطية

ودولة المؤسسات، والاستقرار السياسي، في ظل عدم القدرة على احتواء حالة الاستياء من الوضع الاقتصادي المتأزم، وحلّها إلا بالقوة والقمع، لبسط سيطرة الدولة على مقاليد الأمور.[٤]

ثانيًا - العنف الانتخابي ودلالاته

اختلفت التقديرات قُبيل الانتخابات الرئاسية المبرمة عام ٢٠٢٢م، وما ستؤول إليه الأمور بعد انقضائها، وبرغم تشكيك الخاسر في صحة النتائج، لكن لم تشهد الانتخابات عنفًا يضاهي ما كان عليه الحال، في أعقاب انتخابات عام ٢٠٠٧م، مع الوضع في الحُسبان، أن الرئيس الفائز كان يواجه اتهامات من قبل المحكمة الجنائية الدولية، بشأن ضلوعه في تلك الأحداث التاريخية الدامية، إلَّا أنَّ الاتهامات قد سقطت عنه، لضعف أدلة الإدانة.[٥]

ونظرًا لهذا الإرث التاريخي، فقد سعى «روتو» نحو تجاوز مثل هذا المأزق، منذ اليوم الأول له في الحكم، عبر تقديم ذاته بوصفه رئيسًا لكل المواطنين، تحت مظلة أمة موحدة ومزدهرة، فضلًا عن تركيزه في خطابه السياسي، على اعتبارات التنمية الاقتصادية، ومكافحة الفقر، بدلًا من التركيز على التعبئة العرقية.[٦] وكذلك الحال بالنسبة لمنافسه في السباق الانتخابي «رايلا أودينجا»، والذي تجنّب - أيضًا - الخوض في الاعتبارات العرقية، وهو ما أسهم في تهدئة وتيرة الاستقطاب والتحريض على أساس عرقي، ممَّا جعل حدّة العنف الانتخابي - على أساس عرقي - المواكب لانتخابات عام ٢٠٢٢م أقلَّ من سابقاتها.[٧]

ومع ذلك، فقد رُصدت بعض التجاوزات والانتهاكات، خلال السباق الانتخابي، شأن واقعة قتل أحد المسؤولين بلجنة شؤون الانتخابات IEBC «دانييل مبولو موسيوكا»،[٨] فضلاً عن المواجهات العنيفة في بعض مراكز فرز الأصوات، وكذلك الحال في الاحتجاجات اللاحقة بالانتخابات، والتي شابها قدر من الطائفية والعرقية، وإن كان اللجوء لمسار التقاضي قد أسهم في تجنّب ويلات الصراعات المسلحة، وهي خطوة تمثّل في حدّ ذاتها نضجًا في التحول الديمقراطي في البلاد.[٩] فضلاً عن حرص الطرف الخاسر على عدم تحريض أنصاره إزاء اللجوء للعنف، بعد إعلان النتائج.[١٠] ولكن ذلك لا ينفي مساعي المعارضة، لتقويض شرعية النظام الحاكم، مع الدعوى لرحيله، نظرًا لعدم الكفاءة في صنع السياسات، وإدارة مقدرات البلاد، بما لا يتناسب مع احتياجات وتطلّعات المواطنين في مواجهة الأزمات المتلاحقة، في ظل تمسك الحكومة بسياسات الإصلاح الاقتصادي، وترشيد الإنفاق العام، وتقليص الدعم.[١١]

كما أن الاحتجاجات المتأججة من قبل المعارضة، والرافضة للسياسات الاقتصادية والضريبية للحكومة - والتي تأججت منذ مارس، ثم مايو، ثم يوليو، عام ٢٠٢٣م - قد شهدت تنامي حدّة العنف والتحريض، وأفضت إلى المزيد من الاستقطاب والمواجهات بين المحتجين وقوّات الأمن؛ إذ تشير التقديرات إلى تزايد حدّة

تدخّل قوّات الأمن، لقمع الاحتجاجات التي أطلقتها المعارضة، والتي عدَّتها السلطات بمنزِلة تحرّكات غير قانونية، وتمثّل تهديدًا للأمن القومي، ممَّا أسفر عن سقوط ضحايا، كما يتبين من الشكل المقابل المرفق، والذي يوضّح تزايد معدّلات العنف الشرطي ضدّ الاحتجاجات، التي شهدتها كينيا خلال الفترة من يناير عام ٢٠٢٢ حتى أغسطس عام ٢٠٢٣م؛ إذ يتّضح أن المعدل الأكبر من ممارسات العنف الشرطي، كانت من نصيب الاحتجاجات، التي شنّها معسكر المعارضة، والمعروف باسم «تحالف أزيميو». كما يوضح الرسم – أيضًا – تفاقم معدلات العنف، خلال الموجات الثلاث للاحتجاجات، والتي شهدتها كينيا خلال العام ٢٠٢٣.[١٢]

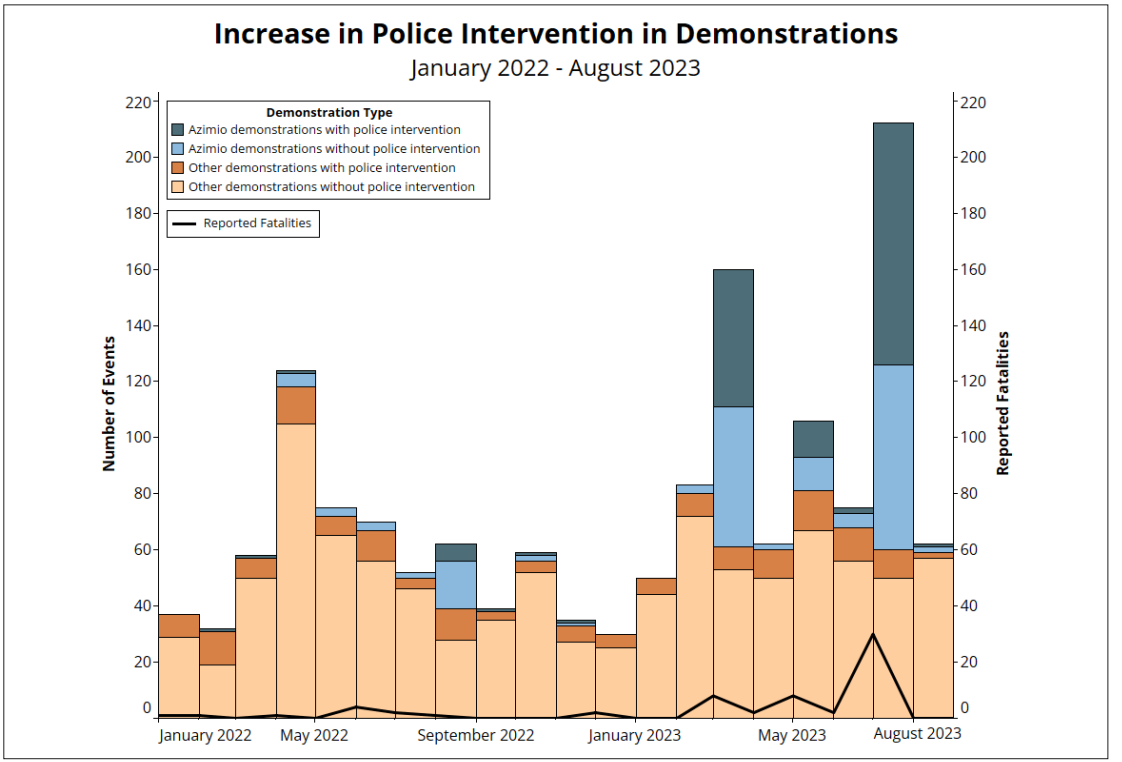

"Kenya: Police Use Excessive Force in Response to Anti-Government Demonstrations," *ACLED Data*, September 26, 2023, https://acleddata.com/2023/09/26/kenya-situation-update-september-2023-police-use-excessive-force-in-response-toanti-government-demonstrations/.

ومن ناحية أخرى، فقد كان أحد أهم أسباب العنف السياسي والاضطرابات، هو تقويض شرعية الرئيس «روتو»، جرّاء عدم وفائه بوعوده الانتخابية، خاصة على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي؛ فقد عوّل روتو على خلفيته الطبقية، بصفته من عامة الشعب، ممّن حققوا الثراء عبر الكفاح، وهو ما وعد بتبنّيه كنموذج اقتصادي، للقضاء على الفقر، عبر دعم الفئات الكادحة تحت شعار: «أمة مكافحين»، إلّا أنّ الأوضاع

المعيشة قد ساءت خلال عهده، وهو ما استغلته المعارضة للتعبئة الشعبية ضدّه، خصوصًا بعد إقرار قانون المالية لعام ٢٠٢٣م، والذي تضمّن مضاعفة الضرائب على الوقود، لتقليل الإنفاق العام، وتعزيز الإيرادات الحكومية.[١٣] بل بات الفقراء متشككين في نيّات السياسات التنموية للحكومة، وما إن كانت بالفعل تصبّ في صالحهم، كما هو الحال في بعض مشاريع الإسكان، ومكافحة العشوائيات.[١٤]

ومجمل القول، لقد بات السياق العام مشحونًا بالاستقطاب السياسي، بين معسكري: الحكومة والمعارضة، ومصحوبًا بتنامي حدّة العنف والاضطرابات، على نحو ينذر بانزلاق البلاد نحو الهاوية مجدّدًا، إلا أن المساعي الحميدة لرأب الصدع، وتقليص الهوة بين الجانبين، قد عملت من أجل تجنّب مثل ذلك السيناريو الدامي، كما يتبين فيما يلي.

ثالثًا - الدعوات للحوار الوطني

في ظلّ انسداد الأفق، واتّساع حدّة الخلافات والاستقطاب السياسي، برزت العديد من الدعوات، لإطلاق الحوار الوطني، بين الحكومة بقيادة «روتو»، وغريمه قائد المعارضة « أودينجا»، وآلت العديد من تلك المساعي إلى الإخفاق، بفعل تجدّد المواجهات، وتبادل الاتهامات، وتحريض كل طرف ضد الآخر.

ثم برزت دعوة من قبل الحكومة في مارس عام ٢٠٢٣م تنادي بإطلاق حوار وطني في إطار البرلمان، وهو ما رفضته المعارضة، التي أرادت ضمان مشاركة القوى غير الممثلة في البرلمان بالمفاوضات، فضلًا عن اتّهام المعارضة للحكومة بعدم جدّية نيتها في الحوار.[١٥] ولاقت الدعوات للحوار في مايو الماضي المصير ذاته؛ فقد عادت الاحتجاجات من جديد بعد قرار تعليقها،[١٦] كما وجّهت القوى الإقليمية والدولية دعوات للتهدئة، واللجوء لآليات الحوار، مثلما هو الحال للمفوضية السامية لحقوق الإنسان، ومفوضية الاتحاد الإفريقي.[١٧] ونظرًا لما نجم عن الاحتجاجات من خسائر على مختلف الأصعدة، [١٨] ومع دق ناقوس الخطر بعيد تفاقم الاحتجاجات والعنف، بدأت الأطراف الاستجابة لدعوات التهدئة والحوار، خشية تدهور الأمور، لتصل إلى حدّ الإبادة الجماعية، أو الحرب الأهلية.[١٩] إلى جانب التخوف من استغلال الجماعات الإرهابية والإجرامية لحالة الفوضى، المصاحبة للاحتجاجات.[٢٠] ومن ثم، التقى زعيما المعسكرين في يوليو الماضي،[٢١] وبدأ تأليف لجنة للحوار الوطني تضم معسكري الحكومة، وأحزاب المعارضة في أغسطس الماضي، أي بعد عام من الانتخابات الرئاسية، ليبدأ بذلك فصل جديد من التفاعلات بين مختلف القوى السياسية، التي قررت اللجوء للتحاور، بدلًا من العنف، لحلحلة الخلافات، بشأن مختلف القضايا والأولويات.[٢٢]

وفي نهاية نوفمبر الماضي، قدّمت اللجنة تقريرها بعد ثلاثة أشهر من المفاوضات، وخلص التقرير إلى بعض المكاسب التوافقية، مثل بعض التوصيات والمقترحات، المتعلقة بتدقيق العملية الانتخابية، وإصلاح تلك

المنظومة، عبر إعادة هيكلة اللجنة المستقلة للانتخابات، وتم التوصية بزيادة المدة الزمنية، التي تستمع فيها المحكمة العليا، وتبتّ في الطعن بصحة الانتخابات الرئاسية، من ١٤ إلى ٢١ يومًا.[٢٣]

ولعل أبرز الإصلاحات السياسية، كان الاتفاق على استحداث منصب رئيس الوزراء، وكذا كيان للمعارضة في النظام السياسي، من خلال تدشين منصب زعيم المعارضة الرسمي، على أن يكون له نائبان، إلا أن تنفيذ تلك التغيرات الهيكلية، تتطلب إجراء استفتاء شعبي عام لإقرارها.[٢٤] أمَّا على صعيد الأولويات الاقتصادية فقد تم التوافق على العمل على خفض تكاليف المعيشة، وضبط أوجه الإنفاق العام، مثل خفض بدل السفر المقدم لموظفي الدولة، لكن لم يتم التوافق حول آليات تخفيض ضريبة القيمة المضافة على الوقود، من ١٦٪ إلى ٨٪، وكذلك إلغاء ضريبة السكن.[٢٥]

أمَّا عن ردود الفعل بشأن مخرجات الحوار الوطني فقد لاقت توافقًا نسبيًّا؛ حيث أيّدتها الحكومة بقيادة «روتو»، ودعا للتكاتف من أجل المضي قدمًا، لتحقيق الصالح العام، ووجه البرلمان نحو تنفيذ تلك التوصيات.[٢٦] بينما انقسم معسكر المعارضة بشأن مضمون التقرير النهائي، واختلفوا حول جدوى تلك التوصيات، مع التحفظ على بعضها، وحاول زعيم المعارضة دحض المزاعم بشأن انقسام معسكره، وأعلن ترحيب المعارضة بمخرجات الحوار الوطني، باعتبارها خطوة جيدة، برغم عدم التوصل لتوصيات، لمعالجة أزمة غلاء المعيشة.[٢٧]

ومجمل القول، فقد لاقى الحوار الوطني ومخرجاته استحسانًا، من قبل مختلف الأطراف في الساحة السياسية الكينية، باعتبارها خطوة إيجابية، إزاء تعزيز مسار التحول الديمقراطي، وتجنب الانزلاق نحو العنف، والصراعات الأهلية المسلحة. وإن كانت هناك بعض التحديات، التي قد تعكر صفو ذلك الإطار التوافقي، وفي مقدمتها طبيعة التحالفات السياسية المرنة والمتغيرة، والتي باتت إحدى السمات المميزة للسياق السياسي الكيني. فكما انشق صف معسكر الحكومة في عهد الرئيس السابق «كينياتا»، الذي لم يدعم نائبه «روتو»، بل دعم منافسه «أودينجا» في نهاية عهده، وفي خضم السباق الانتخابي الأخير،[٢٨] وهو أمر قد يتكرر في أعقاب مخرجات الحوار الوطني، وما نجم عنها من تنامي الانقسام داخل معسكر المعارضة، على نحو قد يسهم في توليد تحالفات مغايرة بين القوى السياسية، وقد تفسح مخرجات الحوار الوطني المجال، لإعادة تأجيج التوترات من جديد، في حال لم يُتَوصَّل لاتفاق، حول سبل معالجة أزمة غلاء المعيشة.(٢٩) كما أنها قد تؤدي إلى تعقيد المشهد السياسي، في حال تفعيل منصب رئيس المعارضة، ورئيس مجلس الوزراء، وذلك في ضوء التجارب السابقة، لطرح مثل تلك الحلول، والتي يُنظر لها، باعتبارها محاولة لاستمرارية نفوذ بعض القوى في السلطة بأسلوب غير مباشر، إذا ما انتهت المدة الرئاسية المقررة لهم دستوريًّا، كما سبق أن حدث في عهد الرئيس السابق كينياتا.[٣٠]

تعقيب ختامي

يتبيّن ممَّا سبق، أن لدى كينيا تجربة واعدة للتحول الديمقراطي، وبرغم ما شهدته البلاد من ممارسات، أفضت إلى تفاقم حدّة الاستقطاب والعنف السياسي، فإن لجوء مختلف القوى المتنافسة لآليات الحوار، وأطر التقاضي، بدلًا من العنف، إنما تعكس نمو الخبرة الديمقراطية، فضلًا عن الحرص على التعلّم من الخبرات التاريخية، من أجل تجنب سيناريوهات الاقتتال والحروب الأهلية على أسس عرقية وقبلية، في إطار التنافس على السلطة.

لكن محفزات العنف والخلاف تظلّ بمنزِلة قنبلة موقوتة، يمكن في أي وقت أن تجر البلاد نحو الهاوية، في حال تنامت هوة الخلافات، وفي حال احتدام التنافس حول السلطة، وفي أي سباق انتخابي مرتقب؛ فلا يزال الطريق طويلًا، في ضوء الحاجة لإجراء العديد من الإصلاحات السياسية الهيكلية، من أجل تدشين نظام سياسي، قوامه الهوية القومية الكينية، وتتعايش فيه مختلف الأطراف سلميًّا، في إطار من التعددية، على أن يصاحبها إصلاحات اقتصادية وتنموية، من أجل تعزيز مستوى معيشة المواطنين، وتلبية احتياجاتهم، على نحو يعيد ثقتهم في قيم الديمقراطية، وسيادة القانون، ودولة المؤسسات.

الهوامش والإحالات

(1) "Inflation, Taxes and Protests: Challenging First Year for Kenya's Ruto," *ENCA*, September 16, 2023, https://www.enca.com/opinion/inflation-taxes-and-protests-challenging-first-year-kenyas-ruto.

(٢) «كينيا تتوعد بالتعامل الحازم مع الجماعات الإرهابية لفرض الأمن والاستقرار،» قراءات إفريقية، (١٩، يوليو، ٢٠٢٣م)، https://qiraatafrican.com/11136/كينيا-تتوعد-بالتعامل-الحازم-مع-الجماع/.

(3) "Kenya: Government Operation Brings Calm to North Rift Region," *ACLED Data*, 4 August 2023, https://acleddata.com/2023/08/04/kenya-situation-update-august-2023-government-operation-brings-calm-to-north-rift-region/.

(4) Michelle Gavin, "Kenya's Governance Dilemma," *Council of Foreign Relations*, August 22, 2023, https://www.cfr.org/blog/kenyas-governance-dilemma.

(5) "Ethnicity and Violence: New Dynamics in Kenya's Elections?," *ISPI*, August 5, 2023, https://www.ispionline.it/en/publication/ethnicity-and-violence-new-dynamics-kenyas-elections-35968.

"ICC halts investigation into deadly post-election violence in Kenya," *RFI*, November 28, 2023, https://www.rfi.fr/en/africa/20231128-icc-halts-investigation-into-deadly-post-election-violence-in-kenya.

(٦) «ويليام روتو رئيسا لـكينيا.. ماذا ينتظر الرئيس المنتخب؟،» قراءات إفريقية، (٢١، أغسطس، ٢٠٢٢م)، https://qiraatafrican.com/4577/ويليام-روتو-رئيسًا-لـكينيا-ماذا-ينتظر/.

(7) "A Triumph for Kenya's Democracy," *Crisis Group*, September 8, 2023, https://www.crisisgroup.org/africa/horn-africa/kenya/triumph-kenyas-democracy.

(8) "Embakasi IEBC Official was Abducted, Kept in Captivity then Killed, say Police," *Nation Africa*, August 17, 2022, https://nation.africa/kenya/news/poll-official-killed-days-after-abduction-3917022.

(9) "Kenya's Watershed Election: Implications for EU Policy," *Carnegie Europe*, October 6, 2022, https://carnegieeurope.eu/2022/10/06/kenya-s-watershed-election-implications-for-eu-policy-pub-88060.

(10) Paul Nantulya, "Seven Takeaways from Kenya's Consequential Election," *Africa Center*, September 7, 2022, https://africacenter.org/spotlight/seven-takeaways-from-kenyas-consequential-election/.

(١١) تامر الهلالي، «هل تواجه كينيا أزمة سياسية؟ المعارضة تحشد لمطالبة الرئيس بالرحيل عن السلطة،» الشرق الأوسط، (١٠، مارس، ٢٠٢٣م)، https://aawsat.com/home/article/4204901/هل-تواجه-كينيا-أزمة-سياسية؟.

(12) "Kenya: Police Use Excessive Force in Response to Anti-Government Demonstrations," *ACLED Data*, September 26, 2023, https://acleddata.com/2023/09/26/kenya-situation-update-september-2023-police-use-excessive-force-in-response-to-anti-government-demonstrations/.

(١٣) «تعزيز قوة كينيا الاقتصادية.. اختبار الثقة الرئاسي لـ«ويليام روتو»،» مركز فاروس للدراسات الإفريقية، (٢٣، أغسطس، ٢٠٢٢م)، https://pharostudies.com/?p=11377.

Son Gatitu, "Kenyans Struggle After William Ruto's First Year in office," *Africa Report*, October 13, 2023, https://www.theafricareport.com/324300/kenyans-struggle-after-william-rutos-first-year-in-office/.

Kenyea Presidency, *President Ruto Assents to Finance Bill 2023 And Appropriations Bill 2023* (Nairobi: President of the Republic of Kenya, 2023), https://www.president.go.ke/president-ruto-assents-to-finance-bill-2023-and-appropriations-bill-2023/.

(14) Rasna Warah, "Kenya Cannot Wish Away Slums Like Kibera," *The Elephant*, October 11, 2023, https://www.theelephant.info/op-eds/2023/10/11/kenya-cannot-wish-away-slums-like-kibera/.

(١٥) تامر الهلالي، « كينيا: هل انتهى «الحوار الوطني» قبل أن يبدأ؟ بعد إعلان المعارضة رفضها المشاركة في المحادثات،» الشرق الأوسط، (١٩، أبريل، ٢٠٢٣م)، https://aawsat.com/home/article/4283276/كينيا-هل-انتهى-«الحوار-الوطني»-قبل-أن-يبدأ؟.

(16) "Kenya Opposition Says it Suspends Protests after Agreement with Government," *Reuters*, May 3, 2023, https://www.reuters.com/world/africa/kenya-opposition-says-it-suspends-protests-after-agreement-with-government-2023-05-03/.

(17) "AUC Chairperson Calls for Calm in Kenya Amidst Public Protests," *African Union*, March 27, 2023, https://au.int/en/pressreleases/20230327/auc-chairperson-calls-calm-kenya-amidst-public-protests.

UN OHCHR, *Comment by UN Human Rights Office Spokesperson Jeremy Laurence on Kenya Protests*, (Geneva :UN OHCHR, 2023), https://www.ohchr.org/en/press-briefing-notes/2023/07/comment-un-human-rights-office-spokesperson-jeremy-laurence-kenya.

(١٨) حيث تشير بعض التقديرات إلى أن الخسائر الاقتصادية اليومية التي تتكبدها كينيا جراء الاحتجاجات تبلغ نحو ٢٠ مليون دولار.
Michael Kaloki, "Kenya hit by a wave of protests over the cost of living and taxes," *NPR*, 20 July 2023, https://www.npr.org/2023/07/20/1189066564/kenya-hit-by-a-wave-of-protests-over-the-cost-of-living-and-taxes.

(19) Gavin, "Kenya's Governance Dilemma".

(20) Muraya Kamunde, "Kenya National Dialogue Forum Warns of Resurgence of Criminal Groups," *Kenya Broadcasting Corporation*, July 21, 2023, https://www.kbc.co.ke/kenya-national-dialogue-forum-warns-of-resurgence-of-criminal-groups/.

(21) Lawrence Nganga, "President Ruto Reveals Details Of Meeting With Raila," *Citizen Digital*, July 30, 2023, https://www.citizen.digital/news/president-ruto-reveals-details-of-meeting-with-raila-n324535.

(22) Parliament of Kenya, *Majority and Minority Party seek Recognition of National Dialogue Committee* (Nairobi: Parliament of Kenya, 2023), http://parliament.go.ke/node/20589.

(23) "National Dialogue Committee Unveils Report Amid Disagreement on Cost of Living," *Kenya Broadcasting Corporation*, November 26, 2023, https://www.kbc.co.ke/national-dialogue-committee-unveils-report-amid-disagreement-on-cost-of-living/.

(24) Moses Nyamori, "Prepare for Referendum, Raila tells Kenyans as Azimio Endorses Dialogue Report," *Nation Africa*, November 29, 2023, https://nation.africa/kenya/news/prepare-for-referendum-raila-tells-kenyans-as-azimio-endorses-dialogue-report-4449060.

(25) Purity Wangui, "Dialogue Committee report: Key Recommendations Made to Ruto and Raila," *The Star*, November 26, 2023, https://www.the-star.co.ke/news/2023-11-26-dialogue-committee-report-key-recommendations-made-to-ruto-and-raila/.

(26) Wycliffe Nyamasege, "President Ruto Endorses National Dialogue Team's Recommendations," *Mediamax Network*, November 26, 2023, https://www.pd.co.ke/news/ruto-endorses-nadco-report-211833/.

(27) Victor Abuso, "Kenya: A Divided Opposition Cautiously Accepts Dialogue Report," *The African Report*, November 30, 2023, https://www.theafricareport.com/329372/kenya-a-divided-opposition-cautiously-accepts-dialogue-report/.

(28) Jeff Otieno, "Kenya 2022: What to Expect in this Year's Most Competitive Elections," *The African Report*, June 21, 2022, https://www.theafricareport.com/215033/kenya-2022-what-to-expect-in-this-years-most-competitive-elections/.

(29) Victor Abuso, "Kenya: Opposition Threatens to Reject Bipartisan Report," *The African Report*, November 14, 2023, https://www.theafricareport.com/327931/kenya-opposition-threatens-to-reject-bipartisan-report/.

(٣٠) إيمان الشعراوي، «الرئيس الخامس لكينيا... وتخوفات من تكرار سيناريو العنف الانتخابي،» مركز الدراسات الإستراتيجية وتنمية القيم، (٣٠، ديسمبر، ٢٠٢١م)، https://nvdeg.org/الرئيس-الخامس-لكينيا-وتخوفات-من-تكرار/.

عرض كتاب

عرض كتاب
ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق
«أعمال الندوة التي نظمتها مجموعة الدراسات والأبحاث في العلاقات المغربية المشرقية»

د. ياسين بن روان، باحث في الدراسات الصحراوية والإفريقية، مدينة العيون.

أصل كتاب «ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق» ندوةٌ علميَّة، نظَّمتها مجموعة الدراسات والأبحاث في العلاقات المغربية والإفريقية، يومي ٢٩/ ٣٠ مايو عام ٢٠١٣م، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال، التابعة لجامعة السلطان مولاي سليمان. ونسَّق وأشرف على هذه الندوة الأساتذة الباحثون: عبدالقادر أيت الغازي، محمد حواش، عبدالعزيز الضعيفي، وصدرت الطبعة الأولى من الكتاب عام ٢٠١٧م بالمغرب، منشورات كلية الآداب بني ملال، وشارك في الكتاب ستة عشر باحثًا وباحثة، ليتشكَّل الكتاب من ٣٥٣ صفحة من الحجم المتوسط.

يرجع فضل تأسيس ركب الحاج المغربي للشيخ أبي محمد صالح الماجري (ت٦٣١هـ)، خلال الربع الأول من القرن السابع الهجري،[١] ليستمر المغاربة بعد ذلك في أداء مناسك الحج في ركب جماعي، بسبب انعدام الأمن، بعد ضعف الدولة الموحدية في المغرب الأقصى. وانبثق عن ركب الحاج المغربي خمسة أفرع، هي: ركب الحاج السجلماسي،[٢] وركب الحاج الفاسي، وركب الحاج المراكشي، وركب الحاج البحري، الذي ينطلق من مدينة تطوان، وركب الحاج الشنقيطي.[٣] وقد اشتهر ركب الحاج الفاسي على باقي الركاب المغربية الأخرى، ليتأسّس بعد ذلك أول ركب رسمي للدولة، على يد السلطان المريني يوسف بن يعقوب، عام ٧٠٣ هـ ويحل محل الركب الصالحي،[٤] وكان الركب الرسمي أكثر تنظيمًا؛ فقد كان السلطان المغربي يعيّن رئيسًا لركب الحاج، يسمى «شيخ الركب»، أو « أمير الركب»، وغالبًا ما يكون من علية القوم.[٥] ضمَّ كتاب «ركب الحاج»

خمسة محاور علمية، تميَّزت بالانسجام العلمي، والتكامل المعرفي، والضبط المنهجي، ركَّزت هذه المحاور على نسقية ركب الحاج المغربي، ودوره في تعزيز التواصل الديني والثقافي بين المغرب والمشرق، وجاءت على النحو الآتي:

المحور الأول - الرحلة الحجية: الأبعاد والوظائف

اشتمل المحور الأول على خمس أوراق علمية، افتتح بورقة بحثية موسومة بـ» أوائل الأمازيغ في المشرق الإسلامي»، للدكتور عبدالرزاق أبو الصبر، ركَّز فيها على ثلاث نقاط أساسية، وهي: أعلام الأمازيغ في الدولة الأموية، وأعلام الأمازيغ في الدولة العباسية، ونساء الأمازيغ في الدولتين الأموية والعباسية.[٦] وناقش الدكتور أبو الصبر تجليات الوجود الأمازيغي في المشرق العربي، ودوره في بناء الحضارة الإسلامية، يقول في هذا السياق: «وحاصل هذا الأمر، أن بيوتات وقصور المدينة ودمشق والكوفة وبغداد والقاهرة وقرطبة وفاس وغيرها، شهدت اختلاط العرق العربي والعرق الأمازيغي... كما شارك الأمازيغ في وقائع وتطورات المشرق، ما جعلهم شركاء في بناء الحضارة العربية الإسلامية، كباقي القوميات من عرب وفرس وترك وغيرهم».[٧]

وفي الورقة البحثية الثانية، المعنونة بـــ»الرحلة الحجية المغربية بين الدين والعلم والسياسة مشاريع في مشروع» للدكتور عبد القادر أيت الغازي، أشار فيها إلى تعلّق المغاربة بالديار المقدسة، وأنهم كانوا يستغلون رحلاتهم الحجية في ترسيخ الصلات العلمية والسياسية والاقتصادية مع المشرق،[٨] وفي الورقة البحثية الثالثة، بيَّن الدكتور محمد بالعربي حواش دور ركب الحاج المغربي، في مواجهة حملة نابليون بونابرت على مصر، ما بين (١٢١٣هـــ/١٧٩٨م و١٢١٦هـــ/١٨٠١م)، فركب الحاج المغربي خلال مروره بمصر في أثناء حملة نابليون، انخرط في مقاومته، فجمع بين فريضتي الحج والجهاد،[٩] وناقش الدكتور محمد حقي في الورقة الرابعة قضية الحج في المغرب والأندلس في العصر الوسيط، وإشكالية الجدال حول استمرار فرضية الحج،[١٠] في سياق عرف بكثرة الاضطرابات الأمنية، وانتشار مظاهر الفوضى، وغياب طرق آمنة من المغرب الأقصى إلى بلاد الحرمين، خصوصًا وأن الفاطميين في مصر، والصليبيين في بلاد الشام يفرضون ويضيّقون على ركب الحاج المغربي، فانتشرت نازلة سقوط فريضة الحج على أهل المغرب، بسبب الظروف القاهرة، فكان لازمًا على الفقهاء المالكية بيان حكمها الشرعي،[١١]وفي الورقة الأخيرة من هذا المحور، بيّنت الدكتورة سعاد بلحسين مورفولوجية ركب الحاج المغربي ووظيفته،[١٢]ودوره في الصلات الروحية والدينية والثقافية مع المشرق العربي.

المحور الثاني - الرحلات الحجازية المغربية، نماذج وصور

استهل المحور الثاني بورقة بحثية موسومة بـــ»ركب الحاج من خلال رحلة ابن بطوطة وصور التضامن الإسلامي» للدكتور العربي الحمدي، ركَّز فيها على ما ذكره ابن بطوطة في تحفة النظار في أثناء رحلته الحجازية،[١٣] والمتجلّية أساسًا في مظاهر التضامن الإسلامي في أثناء أداء مناسك الحج، من إيواء وإطعام وترحيب ومساعدة مالية،[١٤] وناقش الدكتور نور الدين امعيط قضية الرحلة المغربية إلى الحجاز خلال العصر الوسيط، رحلة العبدري نموذجًا، فبيّن طريق رحلته، والعوائق التي واجهها، والعلاقات العلمية التي رسخها في أثناء رحلته الحجازية،[١٥] وتضمّن المحور مشاركة للدكتور عبد المجيد بهيني على صيغة سؤال استفهامي: «هل كان العراق ابتداء ضمن خط سير رحلة ابن جبير الحجازية؟».[١٦]

المحور الثالث - ركب الحاج مظاهر التواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق

استهل هذا المحور بورقة علميّة موسومة بـــ»الركب الشنقيطي جسر للتواصل الروحي والثقافي خلال العصر الوسيط وبداية الحديث»، للدكتور الحسين عماري، الذي وضّح أن الركب الشنقيطي لم تنحصر مقاصده في أداء مناسك الحج فقط، بل كان وسيلة لتوطيد الصلات الروحية والعلمية والثقافية بين المغرب والمشرق،[١٧] وناقش الدكتور عبدالعزيز الضعيفي علاقة الشيخ أبي سالم العياشي بالعلماء المشارقة بالمدينة المنورة، من خلال كتابه «الرحلة العياشية للبقاع الحجازية»،[١٨] وتجلّت هذه العلاقة في التتلمذ على شيوخ مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأخذ الإجازات العلمية والأسانيد الحديثية، مع الحرص على الاستفادة من الفقه المالكي أكثر،[١٩] وركّز الدكتور المهدي الغالي على واقع المشرق العربي من خلال «الرحلة الناصرية الكبرى»، لمحمد بن عبدالسلام الناصري (ت١٨٢٣م)،[٢٠] وركّز على الواقع العلمي والمذهبي، والواقع السياسي والاجتماعي، بكلٍّ من مصر والحجاز والشام.[٢١]

المحور الرابع - ركب الحاج، العوائق والتحديات

تحدَّث الفقيه الإدريسي عن إكراهات المجال، وجاذبية المقامات المقدسة في ركب الحاج المغربي، من خلال رحلة «ماء الموائد» لأبي سالم العياشي،[٢٢] فإكراهات المجال، تجلّت في الظروف المناخية القاسية، ووعورة المسالك وقفرها، وقلة المياه، وانعدام الأمن في بعض الأماكن، ولكن رغم الإكراهات والظروف الصعبة، إلا أن المغاربة كانوا يشتاقون لحج بيت الله تعالى،[٢٣] وبيّن الدكتور محمد أمين عودة الحجاج المغاربة من مكة المكرمة، وإجراءات الوقاية من عدوى الجُدَري على متن السفينة، باعتباره من الأوبئة السريعة الانتشار بين

الناس، فكانت السلطات الصحيّة المغربية تفرض حجرًا صحيًّا وقائيًّا على الحجاج، حتى تتأكد من عدم وجود أعراض وباء الجُدَري بين الحجاج المغاربة.[٢٤]

المحور الخامس - ركب الحاج، رؤى متقاطعة

استهل المحور الخامس بورقة بحثية بعنوان: «الحج في السياسة الإسلامية لفرنسا وإسبانيا في المغرب إبان فترة الحماية»، بيَّن فيها الدكتور أحمد المكاوي سياسة كل من ليوطي الفرنسي،[٢٥] وبيكبيدير الإسباني، [٢٦] في تدبير الشأن الديني بالمغرب، بما فيها تسهيل أداء فريضة الحج،[٢٧] وناقش الأستاذ محمد بويقران مسألة الحج والعمل الاستعماري، من خلال توظيف فرانكو[٢٨] للدِّين في السياسة الإسلامية، للحماية الإسبانية بشمال المغرب، من أجل فك العزلة عن نظامه الديكتاتوري المحاصر عالميًّا، وقد حرص فرانكو أيضًا على استغلال ركب الحاج المغربي، بغية تعزيز علاقته بالسلطان المغربي مولاي عبدالعزيز، والمشرق العربي، حتى يتكسب ودّ المغاربة والمسلمين، بعنايته للحجاج المغاربة ذهابًا وإيابًا،[٢٩] وأمَّا الأستاذ بوشتى الحزيبي فقد أشار إلى الحجاج، وأماكن الحج بالغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، فبدأ بذكر عوامل تطوّر الحج بالغرب المسيحي، وشروط الحج في الدين المسيحي الذي عرف معارضة شديدة في بداية ظهوره، سيما مع رجال الدين، الذين يعدّون أنفسهم لهم الوصاية الدينية على المسيحيين، وذكر نماذج للحج عند المسيحيين، أشهرها الحج عند جاك دفين كبستال،[٣٠] وخُتم المحور الخامس بورقة بحثية للدكتور خالد شاوش بعنوان «نافذة غربية على ركب الحجيج من خلال اللوحة الفنية وأدب الرحلة»،[٣١] جلب من خلال مجموعة من النماذج الغربية في أدب الرحلة، القاسم المشترك بينها، أنها اهتمت بركب الحاج المغربي، فذكر ركب الحاج المغربي من خلال أدب الرحلة البريطانية، وركب الحاج المغربي من منظور الفن التشكيلي الغربي، ليعطينا في الأخير تمثلات الغرب لركب الحاج المغربي، من خلفية فنية وأدبية.

خاتمة

إن الناظر لكتاب «ركب الحاج المغربي، والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق»، تتَّضح له القيمة المعرفية والتاريخية لركب الحاج المغربي، والذي أسهم في توطيد العلاقات الروحية والثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية بين المغرب والمشرق، وأرسى دعائم التعارف والتعايش بين القبائل المغربية المختلفة، والقبائل المشرقية المتنوعة، مصداقًا لقوله تعالى: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير».[٣٢] ويعطينا الكتاب إشارة واضحة، وهي تمسّك المغاربة بأداء مناسك الحج رغم المخاطر، وبُعد الطريق، واحتمال التهلكة،

ووجود فتاوى شرعية تسقط أداء فريضة الحج في الظروف الطارئة، تنزيلًا للقاعدة الفقهية «حفظ الأبدان مقدم على حفظ الأديان»، في حالة وجود مفاسد، تؤدي إلى تهديد حفظ النفس، وقد دأب ركب الحاج المغربي بعد أداء مناسك الحج، زيارة المسجد الأقصى، وبيت المقدس، وصلة الرحم مع أبناء عمومتهم المغاربة المقدسيين، الذين يسكنون أوقاف المغاربة في حي المغاربة، وزاوية المغاربة.[٣٣]

الهوامش والإحالات

(١) أحمد الماجري، المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح، تحقيق عبد السلام السعيدي، (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، ٢٠١٣م)، ٣٥١.

(٢) نسبة إلى مدينة سجلماسة التاريخية، تقع في المناطق الجنوبية المغربية على مشارف الصحراء الكبرى، يرجع تأسيس مدينة سجلماسة إلى سنة ١٤٠هـ، على يد أبي القاسم سمغو بن واسول المكناسي الصفري، وخربت المدينة سنة ٧٩٦هـ.

ينظر: حسن حافظي علوي، سجلماسة وإقليمها: في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٧م)، ٨٥.

(٣) محمد المنوني، من حديث الركب المغربي، (تطوان: مطبعة المخزن، ١٩٥٣م)، ٩.

(٤) عبد القادر أيت الغازي، ومحمد حواش وآخرون، ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق (بني ملال: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ١٢، ٢٠١٣م)، ١٣.

(٥) ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، ١٤.

(٦) ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، ٢٥.

(٧) ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، ٣٣.

(٨) ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، ٦٦.

(٩) ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، ٦٧.

(١٠) ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، ١٠٢.

(١١) أبو العباس أحمد الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب، تخريج وإشراف محمد حجي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠م)، ٤٣٣.

ابن رشد الجد، فتاوي ابن رشد ط١، تحقيق: المختار التليلي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٨٨٧م)، ١٠٢١.

(١٢) ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، ١٠٥.

(١٣) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مراجعة: درويش الجودي، (بيروت: المكتبة العصرية، ٢٠٠٩م)، ١٥٥.

(١٤) ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، ١٢٩.

(١٥) ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، ١٤٦.

(١٦) ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، ١٤٧.

(١٧) ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، ١٧٥.

(١٨) عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية (١٦٦١- ١٦٦٣م)، تحقيق وتقديم: سعيد الفاضلي، سليمان القريشي، (أبوظبي: دار السويدي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م)، ٢٦.

(١٩) ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، ٢٢٠.

(٢٠) محمد الناصري، الرحلة الناصرية الكبرى، دراسة وتحقيق: المهدي الغالي، (الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ٢٠١٣م).

(٢١) ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، ٢٣٢.

(٢٢) عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية للبقاع الحجازية المسمى ماء الموائد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠١١م).

(٢٣) ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، ٢٦٩.

(٢٤) ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، ٢٧١.

(٢٥) المقيم العام الفرنسي بالمغرب خلال فترة الاستعمار ما بين ١٩١٢م و١٩٥٦م.

(٢٦) المقيم العام الإسباني في الشمال المغربي.

(٢٧) ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، ٢٩٥.

(٢٨) فرانثيسكو فرانكو، هو جنرال وديكتاتور إسباني أحد قادة انقلاب سنة ١٩٣٦م للإطاحة بالجمهورية الإسبانية الثانية التي أدت إلى الحرب الأهلية الإسبانية، وبعد ذلك حكم إسبانيا حكمًا ديكتاتوريًّا بدءًا من عام ١٩٣٩ إلى ١٩٧٥م،

ينظر: مارية روزا دي ماداریاكا، مغاربة في خدمة فرانكو، ترجمة: كنزة الغالي، (الدار البيضاء: منشورات الزمن، د.ت)، ١٠.

(٢٩) ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، ٣٠٥.

(٣٠) ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، ٣١٥.

(٣١) ركب الحاج المغربي والتواصل الروحي والحضاري بين المغرب والمشرق، ٣٣٣.

(٣٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٣٣) عبد الهادي التازي، أوقاف المغاربة في القدس وثيقة تاريخية، سياسية، قانونية، (د.ن، د.ت)، ١٦.

عرض كتاب

الأصول العربية للطوبونيميا في الجزائر

بوساحة أحمد: أصول أقدم اللغات في أسماء أماكن الجزائر

الجزء الأول (الجزائر : دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ٢٠٠٢م)، ٠٠ص.

د. مصطفى سالم، أستاذ في علم الآثار، جامعة باتنة ١، الجزائر.

إن طرح مسألة محفوظية أسماء الأماكن في الجزائر بخاصة، والشمال الإفريقي عامة، في أشكالها الأولى، كما نطق بها ابتداءً، والتعامل معها كما وردت في المصادر، أو أخذها بنوع من التسليم، غير مبنية على مرجعيَّات لغوية سابقة، وتحوُّلات حدثت عبر مسارات تاريخية قديمة- مسألةٌ فيها الكثير من المجازفة البحثية. ولهذا وجب على كل باحث التعمُّق في فهم الأصول اللغوية لأسماء الأماكن ودلالتها. على اعتبار أن الطبونيميا، هي تفاعل الإنسان مع الفضاء عبر اللغة، بوصفها جسرًا.

وبما أنَّ المجتمع الجزائري يتشكَّل من بنيات لغوية كثيرة، تتشابه أحيانًا في مستوياتها الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية، وتتباين مرَّات أخرى – فإن هذه اللوحة الفسيفسائية، في غالبية أوجهها، تلتقي مع اللغة الأم، وهي اللغة العربية، ولكنّها قد تتمايز عنها أحيانًا، فتبدو دخيلة عليها.

ولا شكَّ أن كلَّ من يتفحَّص أسماء المدن والقرى والأماكن في الجزائر، يجد أنَّها قد طالها الكثير من التحريف والطمس في المعنى أو التأويل، وكان كل هذا يتم عن طريق البحث في أصول الكلمات، ودلالات الأسماء، لاستبدال أسماء أمازيغية بها، أو حتى في بعض الأحيان، بدعوى أنها - الأسماء الأصلية - لاتينية. وبعيدًا عن كل التجاذبات الأيديولوجية، والتدافعات السياسية، وسبيلًا لفهم أصول أسماء المواقع الطوبونيمية للجزائر- إذ جاء هذا الكتاب، الذي نستعرضه في هذه الصفحات.

اشتمل الكتاب على مقدمة، تلتها مباشرة أسماء أماكن مواقع في الجزائر. ففي المقدمة، بيَّن لنا المؤلف إيمانه بحقيقة الأصل الواحد والمشترك، لكل اللغات المنتشرة في العالم، وهذا السبب، هو الذي جعله يسهم بهذه الدراسة، وقد وقع اختياره على أسماء الأماكن، كميدان لدراسة الجذور

اللغوية القديمة بدلالتها ومعانيها. وقد حاولت الدراسة أن تشير إلى بعض الحقائق المهمة، كالتقارب اللغوي، خاصة بين اللغات المعروفة بالسامية، واللغات الأوروبية، واللغة الفرعونية، واللغة البربرية. وهذا التقارب، لا يمكن تفسيره إلا من خلال الأصل المشترك بين هذه اللغات، ولإنجاح هذه المحاولة، فقد استعان المؤلف بمجموعة من لهجات شمالي إفريقيا، وبمجموعة من لغات العالم، وهذا لكي يبين أن كل اللغات، هي من أصل واحد، ولا قداسة، ولا أفضلية للغة على أخرى. وقبل الخوض في هذه الدراسة، أشار المؤلف لسبب اختياره أسماء أماكن الجزائر، فقد خصَّص عدَّة فقرات، وضَّح لنا فيها المعطيات التي تتوفر في الجزائر، والتي لا نجدها في بلدان أخرى، والمتمثلة في الآتي:

- موقع الجزائر: والذي يمثل حلقة عبور بين التأثيرات المتبادلة بين الشرق والغرب.

- تنوع تضاريس الجزائر: وأثره في إغناء وإثراء أسماء الأمكنة.

-المقاومة الثقافية: والمتمثلة في المحافظة على كل ماله علاقة بالثقافة الجزائرية.

ثم خصَّص المؤلف ما تبقى من الكتاب، لمناقشة بعض أسماء أماكن الجزائر، ودرس كل اسم على حدة، ثم تقصى الجذور اللغوية القديمة بدلالتها ومعانيها، لكل مكان. كما فنَّد استنتاجات بعض الدراسات، التي أجريت حول شمالي إفريقيا، والتي تخص الجانب الإيتيمولوجي لأسماء الأماكن، ونبَّه إلى عدم الاعتماد عليها. وسنعرِّج على ما جاء حول أسماء الأماكن، التي تُطرِّق إليها في هذا الكتاب:

١- الأوراس[١]

أكَّد المؤلف أن هذه المنطقة تعدُّ نواة أول دولة جزائرية في تاريخها، وهي دولة نوميديا، التي كان لقبيلة ماسيليا الدور الكبير في إنشائها، وأن المعنى الحقيقي لكلمة - آراس-[٢] التي تطورت إلى - أوراس - كتسمية جغرافية، بل وأطلقت كاسم على مدينة، تعني اللون الذي تفاوت بين الأحمر والأسمر، ويطلق كصفة على الوسط الطبيعي كالتربة، والأحجار، وعلى الإنسان والحيوان أيضًا، وأن إطلاق تسمية أوراس على الجبل المشهور، لم تأتِ صدفة، بل هي تعكس جومورفولوجية المنطقة.

٢- أغرم

وهي قرية بنواحي البويرة، وهذه التسمية منتشرة ببلدان شمالي إفريقيا، وحسب المؤلف، فإن هذه الكلمة لا نجد ذكرًا لها عند العودة إلى المعطيات التاريخية والجغرافية، والتي ترتبط بالعمارة المدنية

والعسكرية، فكان لا بد للمؤلف من العودة لدراسة الجذر (رم)، ومقارنته بمجموعة من اللغات، التي وردت فيها تسميات تدل على العمارة، فمثلًا: وجد في العربية كلمة: (إرَم، وأرِم)، وهي حجارة تنصب كمعالم في المفاوز، وفي الأرمية، وجد كلمة: (رَمْتو)، وتعني كومة حنطة، وأما البربرية، فهناك كلمة (آعريم)، وهي أي شيء يوضع على شكل كومة، ومنه توصل إلى أن دلالة الجذر (رم) في كل من اللغة العربية والبربرية، تحتمل معنى الأشياء التي تكون على شكل كومة، كمجموعة من الأحجار، التي توضع كمَعْلم، أو كومة من الحنطة، كما أن تسميات (إغرَم أو أغرم) بشمالي إفريقيا، قديمة قدم العمارة بهذه المنطقة.

٣- إشكالية تسمية رومية في آثار الجزائر

أثار المؤلف هذه الإشكالية، في أثناء اطِّلاعه على الأطلس الأثري الجزائري لستيفان قزال،[٣] حين وجد الكثير من الأماكن الأثرية، تحمل اسم: (دار الرومية بالأوراس وقر الرومية بنواحي شرشال)، وقد فسَّر انتشار التسمية إلى ما قبل الاستعمار الروماني، وهي تشير إلى التمدُّن، وحسب رأيه أن الجذر (رم) يدخل في تركيب الكثير من الأسماء، التي تدل على العمارة في اللهجات الجزائرية، والتي كان يطلق عليها قديمًا تسميات: (إغرام، أغرم أو أرم)، ثم اختفت، وانزلقت إلى اسم (رومية- ثروميث)، وأن الدلالة الأولى للعمارة اختفت، وبقيت الدلالة الأثنية. ومن هذا المقام، نوَّه المؤلف بوجوب إعادة النظر في أنوماستكية المواقع الأثرية الجزائرية، لكيلا تستغل، كما استُغِلَّت أسماء الأماكن من قبل أصحاب النظرية الاستعمارية الفرنسية، والتي كانت تربط كل شيء في الجزائر، وفي شمال إفريقيا، إلى أصول أوروبية.

٤- إمدغاسن

هو ضريح يقع بنواحي باتنة، ويعود تاريخ بنائه - على الأرجح - إلى القرن الثالث قبل الميلاد، وقد أكَّد لنا المؤلف جهل المؤرخين والأثريين، وحتى اللغويين، بمعطيات علم أسماء الأماكن، خاصة في الجانب الذي يتعلق بأسماء الهيدرونيمية، أي أسماء أماكن المياه.

وحسب المؤلف، فإنه بالعودة إلى الجذر المشترك بين اللغات الهندو أوروبية، والعربية، والبربرية، والمتمثل في (مدر)، فإننا نجد تقاربًا من حيث الدلالة التي يحملها هذا الجذر، وهناك تسميات كثيرة، وجدت في الجزيرة العربية، مشتقة من هذا الجذر، كالمكان الذي نسبت له قبيلة (ثمودا)، التي ذكرت في القرآن الكريم، وهو مكان وفير بالمياه والمزارع، وعند إدماج الجذر (م) والجذر (د) في كلمة (مد)، فإننا نجدها تحمل دلالتين؛ الأولى: هي دلالة الماء، أمَّا الآخرة فهي دلالة الانخفاض، ومنه توصل المؤلف إلى أن كلمة (إمدغاسن)، تعني

مكان المياه، هذا المكان الذي يشبه إلى حد ما البحيرة، أو البحيرة ذاتها، وليس القبر، كما ادَّعى كل من تطرق لهذا الضريح.

٥- أقداي الاسم الحقيقي لضريح الأوراس

يشير المؤلف إلى أن تسمية (أقداي)، والتي جمعها: (إقداين)، أطلقت على ضريح الأوراس، وعلى مجموعة القبور المحيطة به، كما أنه، وعند قيامه بدراسة جذر (قد)، سواء في اللهجات البربرية الحالية، أو في اللغة الليبية القديمة، أو في لغة الفراعنة، فهو يحمل معنى البناء، وأن من بين المدن التي أخذت أسماءها من هذا الجذر، مثل: (تيمقاد)، التي ذكرتها النصوص اللاتينية القديمة باسم: (ثاموقادي).

– كما أكد المؤلف أن الفضاء الذي انتشر فيه الجذر (قد) بدلالة البناء، قد تجاوز حدود شمالي إفريقيا، حيث وجد في مصر، وجنوب الصحراء الكبرى.

٦- بلزمة

أكد المؤلف أن المنطقة الموجودة بالأوراس يطلق عليها سكان المنطقة تسمية -برزم- والتي تعني خصوبة الأرض، وعند مقارنته للجذور (برز) البربري، بما يقابله في اللغة العربية، وجد المعنى نفسه، والذي يطلق على الموضع الذي ليس فيه شجر، وهو تعريف يتفق تمامًا على سهل بلزمة، على حد قوله.

٧- بريكة

تقع هذه المدينة بولاية باتنة، أمَّا المعنى المقصود للكلمة، فرجَّحه المؤلف، لغلبة اللون الأسود في محيط هذه المنطقة، أو لون التربة، وهذا بعد دراسة الجذر (برك) من الناحية الإيتمولوجية، وتتبع تاريخ الجذر، من خلال المقارنة اللغوية بين مجموعة من اللغات؛ فاختزال الجذر (برك)، يعطي شقين: الأول(بر) الذي يحمل معنى الكبر والكثرة، أمَّا الشق الآخر، فهو يدل على اللون الأسود في أقدم اللغات.

٨- جبل بوغيول

يطل هذا الجبل على سهل بلزمة بالأوراس، وقد فنَّد المؤلف تفسير (إميل لاوست)،[٤] الذي قصد به: حيوان الحمار؛ إذ أكَّد أنَّ المقصود بالكلمة هنا هو الغابة الكثيفة، لكن اختفت من التداول في اللهجات البربرية، ولم يتبقَّ إلَّا في أسماء الأماكن، وعند المقاربة اللغوية بين العربية والبربرية، وجد أن دلالة الجذر (غل)، يحمل دلالة الأشجار الكثيفة، ومنه توصل المؤلف إلى أن أشجار الأرز العالية، هي التي أعطت للجبل اسم

(بوغيول)، وأن اللغة العربية، تطلق على الأشجار العظام (الغيل).

٩- تلمسان

تُعَدّ من أهم المدن الجزائرية، التي لعبت دورًا بارزًا في الحضارة الإسلامية، وقد أعطى لنا المؤلف تفسير كلمة تلمسان، وفق معطيات أسماء الأماكن، وكذا تتبعَ الجذر (لمس)، الذي جمعه: (تيلمسي)، الدالة على كثرة منابع الماء، وبالتالي تفنيده لما جاء به يحيى ابن خلدون.(٥)

١٠- توات

يقع هذا الإقليم في جنوب غرب الصحراء الجزائرية، وأكد لنا المؤلف أن كل المصادر التي تناولت هذا الإقليم، لم تقدم تعريفًا دقيقًا له. ولتأكيد دلالة كلمة (توات)، فقد حاول دراسة ايتيمولوجية الجذر (و)، الذي يرمز إلى الأشياء المنخفضة، أو التي تبدو بأشكال ثنايا، وأن كلمة (واوات) الفرعونية، التي تعني المنخفضات، نُقِلت من طرف الساميين والإغريقيين.

١١- خنشلة(٦)

تقع هذه المدينة في مجال الأوراس الكبير، وقد عرفت قديمًا باسم (باغاي)، ولإعطاء المعنى للكلمة، درس المؤلف إيتيمولوجية جذر (خنشل)، الذي يعني الأرض المحروثة، وأن لفظ (خن) قديم جدًّا، وسابق للهجات البربرية واللغة العربية، لكن بقيت آثاره في تركيب الكلمات.

١٢- لمسيلة

تقع المدينة شمال حوض الحضنة، أمَّا عن أصل التسمية فقد فنَّد المؤلف رأي سعد الدين بن شنب القائم بربط تسمية لمسيلة بقبيلة ماسيليا، التي شكَّلت نواة الدولة النوميدية، باعتباره أن التسمية لم تكن حكرًا على القبيلة، وحسب رأيه أنه بالعودة إلى الجذر -سل- الذي تمتلكه اللغة العربية والبربرية، ويعطي الدلالة نفسها، فكلمة -سال- يقابلها في البربرية -إيسليلا- ومعناها جريان الماء وسيلانه ومنها جاء اسم لمسيلة.

١٣- سريانة

تقع هذه المدينة في مرتفعات بلزمة بالأوراس، وحسب قول المؤلف، فإن تسمية سريانة، أو سليانة، تسمية قديمة جدًّا، وتعود إلى اللغة الليبية، التي انحدرت من اللهجات البربرية للأوراس، بحيث حلَّت محلها الكلمة العربية – لعزيب، وهي نوع من حياة الاستقرار الدائم.

١٤- يسر

تقع المدينة بولاية بومرداس، ويعدّ المؤلف أن كلمة (يسر) قديمة قدم الجذر اللغوي (سر)، هذا الجذر الذي تطور إلى جذر ثلاثي، في كل من اللغة العربية واللهجة البربرية (غزر)، ولكن دون أن تتغيَّر الدلالة التي بقيت مرتبطة بأماكن المياه، وخاصة الأودية.

خاتمة

وفي الأخير، نستطيع القول: إن هذا الكتاب يمكن اعتباره من المشاريع المهمة، التي تحتاج إلى المزيد من الدراسة والتمحيص؛ فعلى الرغم من وجود بعض النقائص في منهجية إعداد هذا الكتاب، بالإضافة إلى سهو المؤلف في إدراج خرائط وصور توضيح مواقع تلك الأماكن، إلى جانب هذا، فإننا نلحظ افتقار الكتاب إلى الاعتماد على بعض المصادر، خاصة العربية منها، التي تناولت أسماء أماكن الشمال الإفريقي، لكن هذا لم ينقص من عمل المؤلف شيئًا؛ فكانت مساهمته هذه في اختيار أصول أقدم اللغات، في أسماء أماكن الجزائر، محاولة منه لتبيان الأصل المشترك بين كل اللغات، وكذا التمازج الذي حدث عبر آلاف السنين، بين العربية والأمازيغية في شمالي إفريقيا، وهذا إن دلَّ عن شيء، فإنما يدل على الوجود العربي، والتأثير في هذه المنطقة، قبل الفتح الإسلامي.

وعليه، وجب علينا كمختصين، التعاون فيما بيننا، من أجل إعداد معجم طوبونيمي جاد، يعتني بأسماء الأماكن، ومعرفة دلالتها، وتأثيرها اللساني والسوسيولساني في المجتمع – إضافة إلى معالجة قضية دلالة الجذور، التي تدخل في تركيب تلك الأسماء، وبطبيعة الحال، فإن إنجاز هذا العمل لا يستهدف إثبات واقع مرغوب، على حساب واقع آخر يراد استبعاده، وإنما الحرص على الموضوعية التامة.

الهوامش والإحالات

(١) حسب المؤرخ البيزنطي بروكوب، فإن أصل كلمة الأوراس هو: أوراسيوس، ولمزيد من الاطلاع ينظر:
Procope de Césarée, "Livre11, Chapitre XVI," in *Histoire de la Guerre des Vandales* (Paris: n.p, n.d.).

(٢) يعدّ البكري أول من أشار إلى معنى الأوراس، فقد تكلم عن مدينة بالقرب من لمسيلة اسمها (تاوراست)، ومعناها بالبربرية الصحراء:

أبو عبيد عبد الله البكري، المغرب في بلاد إفريقيا والمغرب، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ١٩٥٧م)، ٥٤.

(٣) في سنة ١٩١١م أصدَر الأطلسَ الأثريّ الجزائريَّ الباحثُ الفرنسي: ستيفان قزال، فقد سجَّل الكثير من البيانات التاريخية والجغرافية المهمة، التي يعود أغلبها إلى الفترة الرومانية، مع طمس كل ما له علاقة بالوجود العربي الإسلامي:
Stéphane Gsell, *Atlas archéologique de l'Algérie* (Alger: A. Jourdan, 1911).

(٤) يعدّ إميل لاوست عميد الدراسات البربرية، وكذا أسماء الأماكن بشمال إفريقيا التي كانت في نهاية سنة ١٩٣٩م، لمزيد من الاطلاع ينظر:
Emil Laoust, *Contribution a une étude de la toponymie du Haut Atlas* (Paris: Paul Geuthner, 1942).

(٥) يقول يحيى ابن خلدون في هذا الصدد: «...تلمسان بلغة البربر، كلمة مركبة من (تلم) ومعناه: تجمع، و(سن)، ومعناه: اثنان؛ أي الصحراء والتل...»،

يحيى ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج١، (الجزائر: المكتبة الوطنية، ١٩٨٠م)، ٨٥.

(٦) أثار غوستاف مارسي بأن الاسم القديم (لبغاي) مشتق من اسم نبات شوكي يوجد في الجبال، وهو (ثابغا).
Gustave Mercier, "Les noms des plantes en dialecte chaoouia de l'Aoures," *In Actes du 14ème congrès international des orientalistes, Alger* (Paris: Ernest Leroux, 1905), 97.